حانة المتنبي

عزيز التميمي

الكتاب : حانة المتنبي (قصص قصيرة)

المؤلف : عزيز التميمي

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ١٤٦٨٦ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 260 - 1

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس: ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



عزيز التميمي

حانة المتنبي

قصص قصيرة

الفهرست





تنزل هكذا، أصابع مبهمة تشير إلى قاع الأشياء، تتهمني بالضياع، باللاّمبالاة... لا أدري لماذا تجرّأت هذا اليوم ولوّثت براءة كلماتها، كانت تندلق مثل عبوة طرحها التعب، تنساب شظايا رمادية صوب قاعدة الجدار الأخرس ، ولحظة لمسها حلمة الماء المدورة في قطرة الندى ؛ تستغيث الأشياء ، تدق درفة نافذتي بحنوٍ باهتٍ بحثًا عن ملاذٍ يقيها جلافة الفجر.

كانت تتخفى ببقايا خصلات متناثرة تنسج غموضًا طيلة الليل ، تتوارى أحيانًا خلف غيوم تتدلى منهكة بالعمود الخشبي الذي يربط بين الحائطين المتشحين بالسواد ، حين تتحرّك أشعر بحيرتها تفضحها صغار العناكب.

بصمات فيها حداد ناحل وشكوى تمهد للبوح ، أحس بمرارة كلماتها حين تجف سبابيح اللبلاب حول معاصمها لتؤشر عنوسة جديدة في قاماتها المعلقة كل الوقت ضمن طوابير الغسيل فوق سطوح البيوت الشعبية... كانت تختلس النظرات صوب نافذتي، كائنة مغمسة بالخجل... حينما تتململ الستائر،

يتضاءل ضوء الشمعة المزروعة في خاصرة الزاوية المعتمة ، وحين تتهيأ الشمس للنهوض من وراء حدبة الكون ؛ أقرأ هطولها في عباءة الظلّ المتوارب بين القامات.

الظهيرة الجائعة تفتت تماسك الأشياء ، تغزل خيوطًا زجاجية حول صلادة الأبنية الإسمنتية المغروزة في قلب الطين والحجر ، العربات الصغيرة التي تحمل أكياس الطحين والذرة والشعير تتسلل خارجة من طرف الحي الذي يرقب ابتعاد سرب من الحمام الأزرق قاصدًا القباب والمنائر المذهبة في منطقة السوق القديم.

أتحسس لزوجة الدبق أسفل قميصي ، القطرات الثقيلة تزحف فوق جلدي ، تثير غيظًا في أعماقي فتستعر في ذاكرتي ألسنة الانشغال ، أشعر أن المسطحات الحجرية التي تهندس قاماتها من حولي تتخلى عن هيبتها وسكوتها الدمث ، ترشقني بكآبةِ طلائها المتهرئ ، تستفز فيّ روح المشاكسة وجدل اللحظة التي لا تحتكم لتاريخ معرّف ، فأرفع رأسي كمن يتجرّأ على ممارسة رغبة في مغادرة الوقوف ، أو محاولة التسلل من عيون قاسية ترقب الحدس مثل الحركة في رزنامة معطلة.

وحدها النافذة المكربنة الحواف تستميلُ وهجَ الفكرةِ التي أوشكت تتشظى في رأسي صرخة قاحلة... التفتُّ كمن يهيئ شتاته للبوح أو النطق بشيء يجيز له الانزياح الذي

يؤدي به لحالة أخرى... الجدار الخلفي الذي تخلى عن أرديته بعد رحيل قرص الشمس بدا معتماً غامضًا لا يعد بأية مبادرة للحلم أو لمجرد ممارسة التفكير في خضم أشياء تلد متشحة بوجوه أخرى، وأعلن سواده مع انكفاء الأشياء في دوامة الليل، كنت أجد فيه متنفسًا وملاذًا طيلة ساعات النهار، إذ تجود عليه الشمس بملامح بائسة تحوي شيئًا من بؤسي، وتنثر على امتداد قامته شناشيل تعرِف في ذاكرتي الوجع والحنين.

كنت أقف قبالة تجهمه وأقرأ تراتيل شيخ قبيلتنا حين يقترب موسم الحصاد، وأتوسم في شعاب الظلِّ المندسِّ في تجاعيد عباءة والدتي التي تخفي وجه أخي الرضيع الذي لا يملك حينها إلا تشكيل النغمات وفق سلم موسيقي لم يذكر أنّ ملحنًا تجرّأ ونسبه لنفسه. وفي وقت آخر من النهار تهتز قامة الجدار فتشظي كسلي معها.

لحظة وقوف الشمس في أعلى القبة المقابلة لنافذتي يصخب الكون، رائحة الشواء مع صوت عبد الباسط في أقاصي الحارات، ونغمات عبد الحليم في الشرفة المقابلة، هرج ومرج يتخلل الفجوات، الدروب، الفضاءات، يشعرني أن الكائنات تحتفل لتنسج فرحًا من خيوط ذاكرة ونسيان، وربما تهيئ لفاجعة توشك أن تحين، فأتمعن في صحوة الجدار، هامته العارية تفضح تداعي السنين في تأريخه، يبدو متهالكًا كأنه

بدَّد كل تواريخه وهيباته التي كانت معلقة في نواصي الأبنية الشاهقة، أو في واجهات الأسواق التجارية، لم يعد أحد يعبأ لوجوده الهش، ذلك الوجود المعلن الهشاشة. ربما حتى قسوة قامته التي نزفت قشورها لم تعد قادرة على حمايته من استهتار العناكب والخنافس والديدان المجهولة التي تمر بغتة فتترك عبثًا في طيات الطلاء المتهرئ.

لم يكن لدي دافع للاسترسال في استفهاميتي هذه، مثلما لم يكن لدي دافع أن أفتِّش في متاهة عباءته عن حكاية حب محرمة أو تدوينة كاذبة وربما مغلوطة لآية قرآنية كانت بمثابة الحجر الذي أطاح بحلم ابنة الجيران، فاستبدل حكاية رجمها إثر تهمة زنا مفتعلة بحفرة مظلمة كفيلة بردم المسافة المملوءة بالرماد بين ذاكرة الأب وذكورة الابن في تدوينة غسل العار والبراءة من سواد الوجه.

كانت ملامحه تتوسل سكوتي، عيناه المنطفئتان ترسمان رحيلاً غامضًا ينشب في روحه المرحة، فيلوذ في صمتٍ قاسٍ. سمد في تجهمه وظلَّ هكذا، يقف بقامته المتضائلة أمام نظرات الجميع، ينتف شعرات لحيته الواحدة تلو الأخرى. الرؤوس ما عادت تتداول حكاياته وأحاديثه الشجية، واستحالت مفرداته قبائلَ حروفِ لسجعِ غريبِ الإشارات والرموز، فكان سكوته حسن ختام خُطبه وأحاديثه. وحينما بدا كئيباً في تداعيه لم

أعد متجاسراً في استفهاميتي عن أسباب موته بهذه الطريقة المقيتة الباردة... لويتُ رقبتي ويمّمتُ وجهي صوت الجدار الآخر. الوجه الذي لم يشأ أن يفتعلَ الوقوف قبالة وجهي، بل كان دائمًا متلبسًا بحالة هروب ساخرة، كأنه خارج حقيقة هذا المكان. يطيل النظر لذوائب الظل الممزق في صورته المنعكسة التي تتولد لحظة انفلات قرص الشمس من سطوة بنايات السوق القديم ، لحظات مشاكسة تتبعثر في تشابك الأصابع الحجرية لشناشيل الشرفة المقابلة لنافذتي.

أراه يبسم بشيخوخة متشظية ناحلة، كأنه يمارس طقوس عاطفته مع تلك الأخاديد والبثور التي تنشرها الصدفة في بحيرة سكوته وصمته ، يلتفت ، يستحضر رزمة أوراق صُفر لتاريخ يعتقده حياً، يصرخ، يحاول أن يهيِّئ الجميع للحظة تعريفه ، وحين ييأس منهم يلطم رأسه ، يبعثر أوراقه الصُفر التي تطير في الفراغات والممرات الضيقة المتعفنة ، تحملها الريح المتسللة خفية إلى الساحات العامة وسطوح البيوت والسواقي الرمادية التي تنسحب خارج أحشاء الأزقة المتلاصقة حدَّ الاختناق.

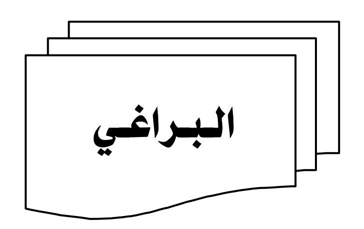
أحاديث ومَلل ، أمثال تؤطر الخراب والخيبة... وبعد محاولاته الخائبة في استحضار ماضيه في ذاكرة الناس، قرّر أن يكتفي بعبثه اللحظي هذا.

كل يوم يحاول أن ينكأ جراحي بحركة شدقه المتهدل مبتسماً ابتسامته العاهرة كتمهيد لمناورة عشق تسطو على خبايا ذاكرتي، حتى تبخر حلمه العقيم واستحال لحظة غاربة تمر في صمت سويقات اللبلاب الجافة التي تطوق معاصم الحجر.

حين تعلن الجدران كُنيتها؛ ألتفتُ صوب النافذة التي تبدرها الريح، خشخشة الأوراق اليابسة تلامس بصمات الانحدار، أصابع خاملة اعتادتها نظراتي تتعلق بطرف الحبل الواصل بين قامتين، وتبتعد. أشياء ترتب الزمن رؤوس مجسات تشير صوب الوجوه، الوجوه التي تنسل من فوهة أخرى لتشكل حكاية تأريخ لا يأتلف وحكاية الجدران من حولي... في البعيد نغمات تنشب لحناً سماوياً يتلمس هامة الدخان، جسدها الهشُّ يلهثُ معلقًا بأصابع إسمنتية صلدة.

بين العمودين المتشحين بالسواد تهتز الأغصان الجافة متدلية مستسلمة كأنها تودع رعشة الحياة، وثمة بريق يغادر عينيها الباردتين بعد أن فقدت كلماتها واستحالت أهداباً مكفهرة بين قوسين.

ديترويت - ٢٠٠٣



مجموعة من الرؤوس والقامات المبعثرة هنا وهناك ، كانت أخر صورة استعرضتْها مخيلتي مثّلت مشهدًا لحشد متداخلٍ من أجساد النخيل والجنود ، وفي لحظة وقوفي أمام الطاولة الفولاذية التي احتوت مئات الكُتل الحديدية الصدئة؛ أحسستُ بهاجس يذّكرني بتكوينات وملامح وجه أكاد أجزم بعدم نسيانه طيلة أيام عمري المتبقية، في وقت أسمع أصواتًا تعلو تارةً وتنخفض تارةً أخرى.

دائمًا يدور في مكانه، يحرث الأرض أسفل قدميه، وحينما يتسلل ذلك الوجه بهدوئه المعروف؛ ينشب في خلدي ذلك الهاجس المدون سلفًا ضمن كوابيسي فيثير فيّ قلقًا مثل استفزاز أو ربما مثل مسامير صدئة تحاول أن تمارس سطوة بائسة في خدوش ذاكرة متعبة، ومن فوق رؤوس أخرى تحاول أن تشدّ قاماتٍ تبسترت قواها إلى كسلٍ موضعي تكوّم فوق كراسٍ هي الأخرى خارت قواها فما عادت قوائمها تميز هاماتها... حاولتُ

أن ألتفتُ إلى الحفرة المجاورة لأرى كم بقي من الجنود على قيد الحياة، فلمحتُ جذع نخلة ضخمة سقط فوق مجنزرة عسكرية ابتلع نصفها الوحل، بغتةً شعرتُ أنّ ثمة عينان حادتان تمارسان سطوة خفيةّ في الاكتشاف، سطوة مدفوعة برغبة عميقة في تعرية الأشياء، كل الأشياء التي زُجّت في هذا المكان، تساءلت عن هذه الرغبة التي تمتزج مع توقٍ شديد للمشاكسة، حاولت أن أتناسى نظرات ذلك المتحذلق الذي ظلَّ طوال الوقت يسخر من معاناتي في اكتشاف مساوئه، قلت في نفسي: ربما يتحدّاني. عدتُ ورفضتُ فرضيتي بعدما توصّلت لتعليل أكثر منطقية من وجهة نظري ووجهة نظر أحد الأشياء القريبة مني والذي شاركني معاناتي تلك، تعليلاً مفاده أن هذا الكامن في زاوية من عمر هذا المكان ربما تجاوز إشكالية التحدي التي ظلّت تؤرقني لسنين خلت، سنين وأنا أتحدى شيئًا ما حولي، قريباَ مني، في داخلي، وكلما أقنعت نفسي أنني خارج مدارات هذه الإشكالية أجدني أدور في فلك أخرى أكثر تجذرًا وتنوعًا في مسالك التحدي والمشاكسة، فأبتسمُ وأنا أتامل قامة المسمار الطويلة التي نالت إعجاب صبية لم تخف شغفها يومًا في امتلاك رغبة بطول تلك القامة.

كنتُ أراه من أسفل هذا السقف الذي حدَّد خطوط نظراتي، أراه يتلصص عليّ بعينين جاحظتين ورغبة بوليسية في

إرغام هواجسي على الاستسلام لرغبته والإذعان لمشيئته ، أتوقعه ذلك القنّاص القميء الذي حاول أن يصطادني ذات ليلة ، فأمتلئ بؤسًا أترجمه نظرةً حائرةً أدور بها خلسة بين الوجوه ، وربما زفرة حارة أطرد بها صدأ روحي بعيدًا ليمتزج في ذرات الأثير ، أشعر أنه ينتشي بلذة انتصاره حين يشرب فيض لعابه الوفير في جوف فمه ، ويلوك بلسانه زهوًا تنامى على بحيرات مرارتي فتبدو شفتاه مثل حافات دقيقة أتوسل نظري أن يكتشف في أديمها حفرة ولو بحجم رأس الدبوس كي أرميها مع قطع السكراب قرب قدمي.

حتى هذا الحلم الذي تجيزه قوانين اللعبة في هذا المكان يبدو بعيد المنال، فكل الأشياء من حولي أحسّ بها تسقط مثل قامات النخيل في بستان جارنا... في لحظة ألمح رأسه يدور كأنه مشحون بقوى وحدوس كونية في أمكنة لا تبعد كثيرًا عن مكامن إثارتي ، وكأنه يرسم بؤسًا وهميًا يستدرجني إليه فتتحرك أصابعي في كل الاتجاهات ترسم إحداثيات ومنحنيات ودوائر تضيق شيئًا فشيئًا حول عنقه وفروة رأسه وشعور الرضا يلامس شواطئ روحي، حتى أدعو كل منبهات الفرح، بوادر ابتسامة، ارتخاء عضلة، انطفاء حنق، دم يجري بهدوء، ولاءة لا تكتمل حين أفاجأ بأحد البراغي يبرهن بطلان محاولتي، أن لا جنود على قيد الحياة في الحفرة المجاورة... حينها أسمع

ضحكة هازئة ، ضحكة تأتي مثل صفعة باردة ، تمطرني بكل الشتائم التي تجعل من منحنيات وجهي أنهار مليئة بالرماد... التفتُ ، أدورُ برأسي ، أفتِّش عن رغبة أخرى تكمل علامات البؤس فوق محيّاي، لا شيء مثل القنابل التي تقتل العشب ، ولحظة أدور برأسي أجد كل الرؤوس تعيش حالة مساومة لا تنتهي مع عالم أخرس مسكون بالعيون والحدقات.

هنا... لا... هناك ، تمتد أصابعي مثل مجسات إخطبوط يتوقع جسد فريسته ، تمتد زاحفة ببطء تتحسس النتوءات والحُفر وربما كل الخرائب التي لم تزل تؤثِّث ذاكرتي ، لأفاجأ برأس دائري يتوقع حركة أصابعي ، يبدو هكذا ، رأس مدوّر مثل طبق معدني قديم كانت جدتي تستعمله في تنشيف معجون الطماطة، وربما مثل لغم تستّر بالتراب ينتظر زلّة قدم مجهولة ، في اليوم التالي بدا مستديراً وأكثر قبحًا إثر تشتت خويطات الضوء فوق مساحته... حاولتُ أن أخمِّن كم مرّة حدث ورأيته في محطة القطار يلتصق بإحدى الدعامات الإسمنتية يتلصص بعينين رماديتين في أقفية المسافرين.

كل تساؤلاتي تبخّرت حينما تأكدتُ أن هذا الرأس يلتصق كل الوقت بحافة الطاولة التي أتكئ عليها ، فيما بعد لمحته يتناسل فوق الطاولات المحيطة بي ، قررت عدم مجاراة تلك اللعبة الخبيثة والانشغال بالقطع المعدنية التي شكّلت تلاً

قبالة وجهي، وبدت نظراتي تطارد هاجسًا قيل لي إنه في جسد أحد البراغي المعدنية، وكلما حاولتُ رفع رأسي أسمع صوته يوبخني إنه ليس من حقي خيانة عامل الزمن الذي صرت ضمن دواليبه.

كان دائمًا يطردني من الخيمة تحت موجات الغضب البشري لأمضي ليلتي متوسدًا صورة جنازتي ورشقات المدفع الرشاش وراء الساتر الترابي غير البعيد، فتموت المحاولة وسط ضجيج يغمر الطاولة، اكتشفتُ إنه ضجيج الأفكار المذبوحة التي جاءت بها الرافعة معبأة بحاوية فولاذية لتطرحها ضمن أكوام البراغي هنا وهناك، ومع كل لحظة تخنق نفسها وتهرب كانت هناك محاولة لفكرة مكبّلة بالانفلات، فالرؤوس حول الطاولات تطحن صخور أفكارها لتطلقها فتات أشبه بالهذيانات، وربما صرخات مشلولة لا تتجاوز قناة أوستاكي في الأذن الوسطى.

رأيت المشهد كله حينما زحفت الدبّابة فوق خمسين جثة قبل أن تعد المقبرة الجماعية، وشعرت أن القسرية تأكل طبيعة الأشياء، فما عادت النظرات تشكل ترويحًا عن ضغط اللحظات التي تغمر المكان بصمتها وهسيسها، وحركة الرؤوس بدت مرصودة بأعين خفية تسجل الإيماءات كمخالفات غير مشروعة يدينها عرف المفاهيم، وربما اعتبرت تجاوزات تبتعد

عن دروب المنطق والعقلانية... حاولتُ رفع رأسي ، هذا الغارق حدَّ التشتت في تأويل ما يحدث ، حاولتُ رفع نظري لأرى ماهية الأشياء بعدما اعتقدت أن هذه الوساوس والأصوات المتداخلة ربما هي من نسج مخيلتي الشرقية التي وصفتها بكل معاني التعسف والعدوانية ، هل تغيّر شيء ؟... سألتُ نفسي دون توقع إجابة جاهزة ، فصوتُ أحدهم لامس طبلة أذني : "اخفض بصرك فالوقت من ذهب" ، وقبلها قلتُ لنفسي : في هذا المكان يجب أن يكون السكوت من ذهب.

من يدري من يتكلّم ، من الذي يبعثر حروفه ويشيد الضجيج في هذا المكان؟ البراغي المتعددة الرؤوس والأعين التي لا تستلم للحظات المهادنة ، أم الرؤوس الآدمية التي استحالت براغي برؤوس مدببة ، وربما بعيون أكثر شراهة من وقاحة الآلة في تجسيم السلوك الإنساني إلى أجزاء أشبة بقطع الحديد التي تنتجها الآلة الضخمة ثم تحيل هذه الأجزاء الإنسانية إلى مجرد أجزاء آلية تتحرك فقط لأجل أن تكسب سلوك الآلة... بدت الأفكار تضرب في رأسي مثل دواليب تلك الماكنة الضخمة في زاوية المكان، وحركة أصابعي تستحيل ارتجافات، ومن حولي آلاف المسامير والبراغي تسخر من هذياناتي وملامح الضجر المتكاثفة فوق محيّاي.

تدوير آخر لصورة المشهد... رجل يقف وسط أكوام الهياكل يفكِّر بلحظة بدء البكاء، وقبل أن أقرِّر رفع رأسي لكسر كابوس الصمت المهيمن على روحي ينتابني إحساس بوجود شخص قريب مني، رائحة جسده تشبثت بسحب الأثير من حولي، لم أكن متأكدًا من وجوده حتى همس بصوت خفيض استطعت أن ألتقط بعض مويجاته، كان الصوت أشبه بالنصيحة الودية: "لا ترفع رأسك". قلتُ في نفسي: لابد أن القنَّاص اتّخذ قراره بقتلي هذه المرّة، "لا ترفع رأسك"، لأن لحظة واحدة تكلِّفنا الكثير من الدولارات، سمعتها تأتي بنبرة حنونة وربما مستجدية الصمت من الرأس المنصوب على جسد آلي بجانبي والذي لم يعلق بصوت مسموع، بل أحسست به يهتز ففهمت إنه أحد طقوس الولاء والطاعة لرب العمل ورب الأجر، لكنني عدت وسمعتها في وقت آخر، كان يصرخ في وجهي حينما أبلغوه بأنه سيموت غدًا، خيِّل ليّ أنني أسمع صوتًا يشبه ذلك الصوت، صوت متغطرس يؤنب تارة ويتوعد تارة أخرى. كل من يرفع رأسه فالباب المؤدي إلى دروب الضياع ينتظره، كل من يطلق كلمة عرجاء واحدة ليتوقع أن يترك كرسيه لبائس آخر أمضى ساعات طويلة يضع ثقل جسده المترهل فوق ساقين موشومتين بمئات الدبابيس التي خلفتها

دروب حقول الألغام والعوسج إبان الحروب الخليجية التي لا تنتهي. من يدري صوت من هذا الذي نسمعه في هذه اللحظة.

رأيته يقف برأسه الأسطواني بمحاذاة الحافة الأمامية للخندق ، يبتسم ابتسامته العاهرة حين يأمرني بفتح النار صوب جهةٍ يفترض أن العدو يكمن فيها ، كان يكره سكوتي ، ويحارب كل الوقت من أجل فتح فمي وفم بندقيتي ، كل يوم أراه في جهة يعلس بأسنانه المكربنة سيجارة متعفنة ، ثم يؤشر بيده صوب جهة العدو ويأمرني بفتح النار ، لا تسكت لئلا تموت ، وها هو يدور برأسه ليباغتني بنظراته الحادة ، لا تتكلم ، أحسّ بعينيه تتوزع في كل الزوايا ، بين الكراسي والطاولات ، خلف المكائن والصناديق الكارتونية ، أراه هذه المرّة بوجوهٍ متعددة ، رؤوسٍ متعددة ، وفوقَ كل طاولة يستلقي بجسده المقولب بطريقة ماكرة يستدرج الرؤوس بخدعة مثيرة لتمضي كل الوقت تفتش عن خلل مفترض عند طوق جمجمته ، وربما أسفل حجابه الحاجز... وحين يمضي الوقت ينفث دخان سيجارته ممزوجًا بابتسامة خبيثة تثير في أعماقي يأسًا قسريًا في جديِّة العثور على خلله المزعوم.

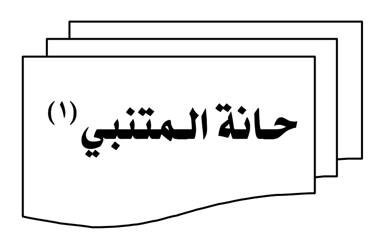
يكرِّر سلوكه مع تلك الرؤوس المكبَلة بالتفكير بأمنية تمرق مثل ومضٍ عند حافات الأفق ، يكرِّر حركاته ببهلوانية تدلل على أنه يعرف أشياءَ كثيرةً عن كيفية ترويض الانفعال ،

ها هو يبدأ هادئًا، ممتدًا مثل ساقية لا تعرف إلا الجريان، يذهب بخطواته الواثقة إلى آخر الطاولة وربما إلى آخر البناية ثم يزج بقامته ضمن حشد القامات التي تطرقها الرؤوس طيلة ساعات العمل، ينظر تارة ويتكلم تارة أخرى، يومي بيد متصالبة فتقترب منه ثمة رؤوس أخرى، يلتفت صوب الغروب الدامي، فتلتهب الجبهة بالنار والرصاص وحبات العرق التي تسيل فوق دبق الأشهر المنصرمة، لا تتكلم، يحني رأسه ليوصل رسالته إليّ: (عيناك عند حافة حزامك..) كلهم ينتظرون رؤوس أصابعك، إذا تجاهلت واحدًا منهم ربما تحدث الكارثة، الأرض الحرام باتت مرتعًا للضباع.

كما ترى يا صديقي... وابتسم لي بخبث وقال: كل هذه الحاويات.. ثم رفع بيده الناعمة أحد البراغي وأعاد كلامه الهادئ: لو أغفلت واحدًا... كل هذ الحاويات سترفض، وستجد قامتك تلازم ظلَّها عند أقرب وكالة لتشغيل العاطلين... تذكّرت كلامه لي قبل اختفائه من خارطة الخنادق المنفية في حقول الشوك والعاقول: عليك أن تكون دقيقًا، لتذهب رصاصات بندقيتك إلى مركز الإحداثيات... وكرّر: مركز الإحداثيات، ولحظة رفع يده ليربت فوق كتفي... اختفى ولم أعد أراه، وها أنا منذ سنين أحاول أن أستعيد ملامح وجهه التي استحالت أخاديد معدنية، أحاول أن أرسم صورًا ذهنية لحركاته وهو

يقف عند حافة الماكنة الكبيرة التي بدت عجوزًا منهكة ، أتحرى أبعد نقطة في ذاكرتي فألمحه يراقبني من بعيد، يرصد حركات أصابعي ، انفعال وجهي ، ثم يبتسم لحظة انزعاجي من سلوكه ، وكأني أسمع كلماته تصفق رأسي ووجودي : أينما تذهب تجد نفسك مرغمًا على سماع أوامري ، فبين السكوت والصراخ ثمة رصاصة عبرت يومًا أديم ذاكرتك وكتلة حديدية اسمها البرغي ما زالت تتوزع في حقول نهاراتك ولياليك ، التفتُ... تأكدت من نبرة صوته، حاولت أن أشتمه من بعيد، ولمَّا استدرتُ بجسدي رأيت مدير الورشة يقف قبالة وجهي يستفهم بهدوء عن سبب رفع رأسي وترك أصابعي تعمل دون توجيه.

ديترويت ـ ٢٠٠٢



حانة المتنبي[1]

لم يكن الوقت بأفضل حال من أشيائي التي أتعبها الوقوف فانهارت في لحظة قسرية ، انهارت في ظهيرة قائظة ، تركت قامات الظلِّ تأكلُ وجهَ الجُدرانِ كالجربِ المستديم ، لم يكن الوقت قد استيقظ بعد ، فهو الساكت والمتوقف عن ممارسة الحركة والتكتكة أسفل زجاجة ساعتي اليدوية منذ الترميم الثالث عشر لدكاكين شارع المتنبي العتيق في ضفة بغداد الشرقية ، أو الرصافة التي ما زالت تلد الحكايات في جيب التمثال المرمري الذي فقد رأسه حينما تهشمت قُربَه قذيفة صاروخية أرسلها طيّار آلي إلى قامة التمثال الذي توقعه أحد المحاربين الأشداء ؛ وربما أحد الإرهابيين ؛ إبان إحدى الحروب التي أمطرت فيها السماء كل شيء: مطر أسود، مطر رمادي، قطرات الماء، قطرات البنزين الممزوجة بقطرات الموت،

(١) حانة المتنبي : القصة الفائزة بالجائزة الثالثة في مسابقة دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد لسنة ٢٠١٠

قطع السكراب والإسفلت، قطع أجساد آدمية شوهدت معلقة في أسيجة جسريّ الشهداء والجمهورية، حتى الحالوب الفضّي المطلي بقشور المنِّ والسلوى غطّى الساحات العامة والدروب الملتفة في جسد المدينة الدائرية.

يُقال إن سوق هرج امتلأ بأحذية رعاة البقر في تلك الليلة الصاخبة التي هرب فيها تمثال الرصافي من قلب الساحة وبقي متخفياَ في أدغال شاطئ دجلة حتى الهزيع الأخير من تلك الليلة الرمضانية التي امتزجت فيها أحاديث كل صنوف الرجال من أبطال السوق وسادة الجدران ومرتادي المرابع الليلية وحتى الحوذية وكذّابي مقاهي شارعي الرشيد والسعدون... منذ ذلك الحين والوقت في صندوق ساعتي يختفي في النهار ويظهر في الليل، تماماً كرأس التمثال الأصلع الذي يختفي في النهار ثم يعود لينتصب فوق كتفي الجسد المنتفخ ليلاً ، ولعبة الاختفاء القذرة هذه لم تدفع بالوقت خارج نقطة الوقوف ، بل تكرس في كل عودة الوقوف حيث الطين والطلاء يترك أخاديدَ مملوءةً بالرماد والعتم الذي يحكي تاريخ الأشياء المؤنسنة وغير المؤنسنة في ذاكرة ضربها فايروس النسيان فأوحت لتأسيس المدينة بهذا الشكل لتحقق هدفين أساسيين: إطالة أمد الحرب، وإطالة يد اللصوص.

بالأمس المدوّن ضمن أخبار السنين العجاف ، حملتُ رزمة قرون من الحياة والتاريخ والفن والحب في كيس جنفاص متهرئ من النوع الخشن المخصص لتخزين بذور الذرة والشوفان ، ولأنه متهرئ ومتسخ لم ينتبه أحد من المتسولين الذين يشكلون حلقة ناقصة تشبه حذوة حصان جدي المنقرض عند فوهة الحانة التي تندس مثل برميل مليء بالسواد في خاصرة شارع المتنبي إلى حقيقة البضاعة التي أحملها ، ولأنه خشن أيضًا أحسستُ بحشد من المسامير اللذيذة تنهش مساحة ظهري الذي احدودب واستسلم لتلك الأنياب الخفية التي راحت تأكل في أدغال صبري مثل عذابٍ قسريَ عليّ تحمّله كتمهيد ليوم القيامة ، حينما تعثّرتُ عند حافة الرصيف المؤدي إلى تمثال الرصافي قبل دخولي المنعطف الأخير حيث شارع فارس الليل والبيداء يفتح فمه المكربن الأسنان ليستقبل مجموعة من الزبائن ، لمحتُ رأس التمثال يتلصص عليّ بعينين جمراوتين ، أحسست بوطأة نظراته المليئة بالحزن والأسى ، كان متخفياً في بطانة الجاكيت الفضفاض المصمم لشخص خرافي ، وفي عينيه بريق حدس ينبئ بكوارث وخيبات... وفي لحظة التعثر والسقوط تلك أيقنتُ أن الناس كلهم حضروا في مهرجان جنائزي لتأبين شاعرهم المتنبي ، ذلك الرجل الذي ظلّ واقفًا يوقظ حقائق التاريخ المروي والمكتوب بلسان سليط حتى

لحظة انقضاض مجاميع العسكر على منبره، وفي لحظة التعثر تلك، أحسستُ بالأيادي تمتد لتسلب منه كل شيء، تاريخه وميراثه حتى ثيابه، وحينما حاولتُ رفع رأسي لتأكيد حقيقة ما يحدث؛ وجدت جسدي يتثاقل فوق كرسي خشبي منهك في الزاوية المعتمة للحانة.

كنت خائفًا ومترددًا في تلك الليلة التي زرتُ فيها حانة المتنبي بعد أن وعدني أحد السماسرة بترتيب صفقة تجارية كفيلة بتسديد كل ديوني للسنوات الخمس المنصرمة؛ ديوني التي أثقلت كاهلي بعجفها وشقائها، والتي بدت تنمو كالجرب مع تجدد المواسم والسنين، ومع خوفي المبهم بدأت تتسلّق أخاديد وجهي طلائع بؤس وتردد وحيرة...

أحدهم أخبرني بدافع المزح أن هارون الرشيد أرسل جواسيسه لتقصي أخبار الذين يتاجرون بالتاريخ والجغرافيا والفن والثقافة، همست: له كل الحق فالتاريخ والجغرافيا والفن تمثل وجودنا وقاماتنا وكنيتنا.

كنت أقرأ في عينيه سخريةً واستهتارًا تشربهما ملامح وجهي مثل خيبة باردة، فألتفتُ أعلِّلُ نفسي بثمة انزواء في خربة قديمة تلمها ذاكرتي لتحاشي حرج يهددني كالهسيس، كدت أنسى أخبار الصفقة السريّة التي أقنعني بجدوى

تنفيذها ذلك السمسار القميء الذي مرّر كلامه إلى رأسي بفلسفة جعلتْ أخاديد وجهي تفيض بالرماد ، مثل بقية الجدران المجدورة الوجوه ، الكالحة بقامات وبوسترات أكلت فضاءات الوضوح وصراحة الطابوق الجيري الأحمر والأصفر... كانت الجدران تحتفل بوجوه اللصوص الذين لم يعترف أحد بلصوصيتهم ، أو بالأحرى لم يجرؤ أحد على توجيه إصبع اتهام واحد لوجه أحدهم ، كل المتسوّلون يصدّقون ذلك الافتراض ، تبعهم في القرون اللاّحقة الفقراء من الدرجات الرسمية.

لم أكن أعرف فلسفة الفقر الرسمي من قبل ، في السنين العشر العجاف أرغمتني الدعايات على تصديق الفقر الرسمي أو الفقر القانوني ، أحد عمال البلدية تطوّع وقدَّم لي تفاصيلَ كثيرةً ومملةً عن مصطلح الفقر الرسمي ، تحدَّث معي طوال تلك الليلة التي أجبرتني فيها زوجتي على مغادرة البيت بعد محاولة فاشلة لبيع جزء من كتبي النفيسة، فالتقيته عند تمثال الرصافي برأسه الأصلع المدور الذي فتح منخريه يعبّ الهواء بحماس عقب اختفاء مضجر مارسه طيلة ساعات النهار.

كنا نشكِّل حلقة مع بعض المتسولين حول قاعدة التمثال التي استهوت أحد الكلاب الهرمة فتمدد عند الطرف الآخر وصار يشاكس أحاديثنا بضراطه المتقطع الذي يفوق نباحه

المتعب. خلال فوضى الأفكار كانت كلماته تندس في رأسي مثل سهام عنيدة ، فألتفتُ لتأكيد يقيني بحقيقة وجه ذلك السمسار ، أحاول تذكيره بماهية الأشياء المخبأة في بطن هذا الجنفاص الخشن ، ردَّ عليّ بجملة استفزازية : آفة الفقر تأكل قامتك فما بال تاريخك وجغرافيتك.

بعد هذه الكلمات تأملتُ مقدمة حذائي جيدًا ، عاد واسترسل في دسِّ كلماته في سمعي : سوف ترفضك هذه الجغرافيا ذات يوم ويتنكَّر لك تاريخك.

كنتُ أحاول ابتلاع كُتلة لعاب بدثْ ثقيلةً ولزجةً لحظةَ سماعي جُملة صاحبي التي تؤكِّد أن جميع الموظفين بمختلف درجاتهم يندرجون ضمن لوائح الفقر الرسمي أو البؤس الرسمي ؛ على حدِّ تعبير أحد المتسولين الذي قرّر بعد عذاب طويل أن يغادر كنية الفقر الرسمي ويتحوّل إلى متسول محترم.

كنتُ أدور برأسي مثل فأرٍ ماهرٍ وحذرٍ في آنٍ ، أتأملُ الرؤوس المتدلية حول الطاولات المغطاة بشراشف خُضر ، والمزدحمة بالكؤوس والصحون والملاعق ومطافئ السجائر ، كأني أبحث عن بؤسٍ يشبه بؤسي وحيرة كالتي تغلِّف ملامحي، تبدو الوجوه حول الطاولات المعتمة مجهدة من كثرة احتساء المشروبات الكحولية ، لغط وكلمات مبهمة ، شجار وعربدة في

الطرف الآخر من الحانة، وعلى مقربة منِّي رقبة نحيلة تنوء بثقل رأس أتعبه التفكير والسهر فبدا مترنحًا يختزل زمن دورته بشفط أنفاس أركيلته بتثاب فتتعالى نغمات فقاعات الماء في حوض الأركيلة وتبدو أشبه بشخير ثقيل... من وراء الطاولة المقابلة يحتدم الصراع والصراخ حول مفتتح قصيدة لم يقلها "السيّاب" ليلة عرسه، دفعني ذلك الصراخ إلى تحسس كيس الجنفاص المحشور بين ركبتي وهمس ينبجس في أحد سراديب ذاكرتي: ترى هل كانت هذه الرؤوس ضمن قوائم المستفقرين؟

لعنة على طرف لساني، لقد خدعني، بالأمس نصب قامتي طيلة ساعات النهار القائظ جنب عمود كهرباء محني الرأس حتى أنَّ حرّ تمّوز أحنى رأسي أنا الآخر، كم مرّة عليّ شتمه حتى أستطيع تعليل حكاية مقنعة لحمل كل هذه الأزمنة والتواريخ وتعليل حكاية مجيئي ومرواحي دون جدوى لزوجتي التي فاض صبرها من انتظار الفرج الذي زرعته وسقيته في أحراش ذاكرتها كل ليلة بعد عودتي الخائبة إلاّ من أخبار حانة المتنبي؟

كانت زوجتي تمارس ضدّي سلوكًا عدوانيًا وهي تحقق معي عقب عودتي في ساعات الليل الأخيرة عن سبب تأخري

في بيع بضاعتي التي كانت تصفها دائمًا بالبضاعة النفيسة ، كانت تشتمني كلما تنفست رائحة الكحول في جسدي ، وتمطرني بملايين الأسئلة التي تقصِّر العمر عن مصدر الفلوس المدفوعة ثمنًا للمشروبات ، بالأمس قلتُ لها أو تحايلت عليها مع يقيني أنها بدأت تكفر بمفردات الحب التي كانت تغمض عينيها حينما تنسجم مع نغمات صوتي وأنا أتلوها في سماء عينيها برقة وحنان، قلت لها : بالأمس أكرمني هارون الرشيد الذي زار الحانة متشفيَا بخبر مقتل المتنبي على يد أحد جنود المارينز الذين داهموا الحانة إثر تلقيهم رسالة تحذير من مخبر سرّي، ودفع ثمن الكؤوس التي احتسيتها، أو بالأحرى ثمن الكؤوس التي احتسيناها ، وسرَا رددّت : بالأحرى كان مشفقًا على حالتي التي تعكس حجم معاناتي من التورط في قضية متاجرة خاسرة بتاريخِ مُصادَرِ سلفًا.

حتى ذلك الرأس الكبير الذي يمارس لعبة الاختباء صار يحدِّق فيّ بعينين هازئتين لحظة مروري بالقرب من جسد التمثال، كنتُ أحاول الهرب من نظرات زوجتي التي تعاتبني تارة وتتوعدني تارةً أخرى ، وكأني أحسّ بصوتِ غاضبٍ تبثه تلك النظرات يهاجم سمعي بكلمات تستفز فيَّ رجولتي التي بدتْ تفقد بريقها مع اختفاء الأشياء في بيتي بعد جولات

البيع والتصفية الأسبوعية ، أهمس لذلك الوجه الذي طرد بألقه برودة دمي ، أحاول أن أعثر على مسامة هادئة تأخذني إلى روح زوجتي التي صارت تتعذب مثل أمكنتي وأشيائي.

أدور برأسي في كل الزوايا والخبايا ، وحين يغمرني اليأس أدسّ رأسي في كيس الجنفاص الخشن لأعيد ترتيب الأسئلة والإجابات الممكنة ، وأدور برأسي بين الوجوه المكسوة بالغبار ، أحاول أن أطرح تساؤلاتي عن سر اختفاء الجميع لحظة قتل المتنبي ، وحينما يرسم الصمت هسيس الإجابات أعود وأمارس لعبة الاختباء ، أعيش اللحظات في جوف الكيس كما الرأس الكبير يعاقر كآبة بطانة الجاكيت الفضفاض طيلة ساعات النهار.

في اللحظة التي رفع فيها رأسه ؛ لمح الاستفهام الآخذ بالنمو ضمن طيات وأخاديد وجهي ، كأنه لمح شيئًا يتوجس منه ، أو جاسوسًا يحتل مساحة ممكنة فوق طاولة معفّرة ببقايا سَلطة نفقت ، أو مشروب تبدد بجزيئاته حلمًا مرتبكًا في تيجان جمجمة خائفة من تصريح مرفوض ، تمايل الرأس الكبير المتثاقل فوق رقبة نحيفة قبل إدراك لحظة التنبؤ ، كل خيوط نظراته صارت تتجاسر عند حواشي قامتي ، ارتبكتُ ، ثمة شيء أثار انتباهه ، كنتُ قد نزعت فردة واحدة من حذائي ودفعتها

خلف الأخرى لأخفي فتقًا في مقدمته يثير اشمئزازي، وكنتُ حاذقًا في عملية الإخفاء تلك، حتى أنني حاولت أن أختلس النظر من زوايا متعددة لأرى كم نجحتُ في ستر العيب الذي أحدثته الأيام في حذائي الذي فقد كل الطبقات العليا لطلائه بفعل عوامل التعرية اليومية وخداع أصحاب شركات صبغ الأحذية الذين لا يتورّعون في ممارسة الغش في التركيبة الكيمائية للأصباغ من أجل زيادة الربح.

همستُ لنفسي: لا يهم إن كان حذائي مهترئ ولم أستطع تبديله بسبب المعوقات المادية التي يعاني منها اقتصاد عائلتي المتداعي في هذه السنين، المهم أن لا يرى ذلك الرأس الجاحظ العينين حقيقة حذائي فيمارس ألاعيبه القذرة في تدمير السعر الذي خمنته لبضاعتي، عينان تحدقان بتمعن... تحركتْ يداي بخفة فرتبت خصلات الشعر المتبقية عند الفودين ثم مسحت ياخة سترتي المكسوة بدبق العرق الصيفي الذي نزّته رقبتي، وشرعتْ عيناي ترقبان كل حركة أو نامة تبدر منه، لسان مبلل يدور في جوف تخمّرت فيه الكلمات، وأنفاس متحاملة تتوسم يقظة لم تكن متيسرة، حاولتُ أن أحدد ملامحه التي بدت عاهرة في لحظة انشغالي.

قلت إنه يجلس منتظراً قدومي لمفاتحته بالموضوع، لأن الجواسيس في الحانة كُثُر، أقنعت نفسي بجدوى توجسه من رؤيتي، قيل لي قبل مجيئي: لا تتوقع منه أن يبادلك التحية، ولا تنخدع بحقيقة نظراته التي تعكس حنكة بوليسية، إنه أغبى سمسار في مدينة الرشيد، وإنه مستغل من قبل الدوائر الأمنية بشكل بشع، وتحت نفس العنوان استطاع أن يشتري أنفس الكتب والتحف الأدبية والتاريخية بأبخس الأثمان وينقلها إلى الطرف الآخر من العالم، وهناك يتكلم ببلاهة أيضًا على أنه أشطر سمسار في مدينة تنام وتصحو على كلمات الرب الوثني الذي زرع كيانه في آلة التلفاز، وصار قدرًا يومياً يتعاطاه الناس مثل الصلاة والأكل وممارسة الجنس، يتكلم عن كل شيء وفي كل شأن له رأي ووجهة نظر، يمتهن السحر وما هو بساحر، يعاقر خمرته بحذاقة تجعل من طريقته في الاحتساء تُنْبِئ بتصوف ممكن... لا يتوقف عن الكلام أبدًا، استهوته لعبة الحكواتي الذي لا يغادر خيام التاريخ، منذ قرون وهو يتكلم، جادل "الفراهيدي" حول تجسيد اللحن في البحور الشعرية، واختلف مع "المعرّي" في تدوين القافية ذات الإيقاع المترف، يجيد حالة التقمص، فيبث الحيرة في الحدود الواضحة بين الممكن واللا ممكن، ويظهر في أوقات مختلفة، في الصيف، في الشتاء، في الليل والنهار، يظهر في المقاهي لاعب طاولة

محترف ، وشارب أركيلة محنك ، وفي الجلسات الأدبية منظِّراَ وناقدًا لا يفتأ يتداخل تارة مع جمهور البنيوية والتفكيكية وتارة أخرى مع جمهور ما بعد الحداثة، وحين يصمت الجميع يبتسم بخبث وهو يعلس حواف سيجاره السمين.

كنتُ حذراً من تقلّب وجهه في صحوة مبكرة، حينما أشار بسبابته للنادل الذي أسرع بإحضار الشاي وقدح من الماء شعرت أن ثمّة ارتياح غزا أطرافي ورأسي وقيعاني... وتأكيدًا مني للفكرة الجهنمية المولودة في كرة رأسي؛ تحسستُ تضاريس الكيس المحشور بين ركبتي ، اعتذرتُ سِرّاً من أسياد الكلمة المحبوسين لظروف إقتصادية في كيس الجنفاص هذا الذي ورثته عن أبي عن جدّي ، وقيل عن عرّاب عشيرتنا الذي كان يمتهن اللصوصية كحالة لتأثيث الذاكرة برجولة قيل عنها رجولة أيام زمان، فسمعت المزيد من الشتائم لحظة القنوت.

كنتُ أدور في مكاني ، أسفل جلدي هرولة تطلق عنانها كريات دمي المخنوقة لقلة الأوكسجين، المارّة هي الحركة وهي الذهاب والمجيء ، كل الأجساد تتحرك بسرعة وانشغال ، كأن الرعب يأكل طرف المدينة الآخر ، حتى الكلاب فقدت نباحها وبدت لاهثة بألسنة متدلية تقطر لعاباً يشبه الإسفلت، لمحت التمثال المرمري يهرول صوب أدغال النهر وجموع الباعة المتجولين تخترق النفق في ساحة الرصافي وتختفي.

أحسستُ أن الوقت يمضي والحر يسوط هامتي ، كنت مزروعًا كقامة عمود فولاذي وسط الساحة التي فقدت شاعرها وناسها وكلابها ، كان الوقت قد توقف في أحشاء ساعتي ، وكل الرؤوس في حانة المتنبي أثقلها السُكْر ، وكل الذين تم استجوابهم عن ملامح القاتل الحقيقي للمتنبي لم يستطيعوا أن يؤكدوا الحادثة ، حتى السمسار الذي ورّطني بحمل تاريخي وتراثي اختفى هو الآخر... حينها لم أجد إجابة مقنعة لتساؤل زوجتي التي أوصدت الباب بوجهي لترغمني على العودة لتلك الحانة.

كانت الرؤوس منشغلة بالطاولات والدخان، والزمن هو الآخر متعثر في جوف ساعتي، والأشياء تتحرك بغرائبية توحي بتشييد مفاهيم جديدة ولغة أخرى غير المعلنة والموثقة في كيس الجنفاص الذي أملكه منذ قرون ، في وقت امتلأت ساحات مدينة الرشيد بالسماسرة من مختلف الجنسيات والأعراق، رأيتهم يتاجرون بكل شيء، النفط، الغاز، الشعير، الذهب، الحب، الأخلاق، الوطن، الأرض، كنت متوجسًا من ذلك الوجه الذي تظاهر بعدم معرفتي وحاول أن يتسلل بعيدًا عني، تأكدتُ أنها حيلة جديدة يمارسها ضدي، وكنت

متيقنًا من شعوري هذا ، فقد كانت عيناه تلاحقان كيس الجنفاص الذي بحوزتي، إلا أنه لم يقترب قط من كيسي.

كنت أدعو الله في كلِّ ثانيةِ تمرّ زاحفةً في تاريخ مدينة الرشيد أن يبادرني ولو بمزحة بسيطة عن ثمن بضاعتي التي استهلكتْ مني صبري ويقيني بحقيقة هذا السمسار ، كانت نظراتي تلوذ بأول نادل يقترب مني، أحاول أن أستفهم، طريقة سادية في تدوين المعلومة ، فكانت رأس النادل تتحرك بنصف دورة تقطع كل امتدادات هواجسي، إنه لا شيء يباع في هذه المدينة بثمن ، وكل شيء يباع بلا ثمن ، تأكدتُ أن فلسفة السادة المسجونين في كيس الجنفاص هذا هي الأخرى لم يعد لها ثمن ، حينما لمحت قامة غريبة تتسلل بهدوء إلى جوف الحانة حاولتُ أن أعيد ترتيب أوضاع حذائي بحنكة موروثة ، فكان الجميع يمارس ابتسامةً خفيفةً ويمضي.

ديترويت ـ ٢٠٠٤



كانت الابتسامة الحذرة تغلِّف وجه "الحاجَّة نجيبة" الخريفي وسط احتفالٍ ملحوظٍ تمارسه الرؤوس المصغية لوقع الكلمات وهي تصف ما حدث لها في سوق المدينة... كانت تتكلم أحيانًا وتهذر في أحيانٍ أخرى، وهذرها يوسِم كلماتها بمسحة صدقٍ في زمنٍ تشظَّت فيه الأقاويل والحكايات.

بات من الصعب الحصول على يقينٍ ثابتٍ عن ما يحدث في الشارع المجاور... وفي خضم القال والقيل صار يتعذر على من يفكِّر في الذهاب إلى السوق تحديد أمكنة الخطر الوافد مع أصوات العربات وصيحات الباعة المتجولين الذين تنامى الحدس في ذاكراتهم وجعلهم أحذر من طيور الشرق النافرة كل الوقت.

كانت نجيبة تسرد حكايتها مستغلةً خدر الجمهور الذي بدا منشغلاً في نسج حكاياته اليومية. رؤوسٌ مدورةٌ بوجوهٍ كئيبةٍ غير مكترثةٍ بأسبقيات الحديث، لغطٌ وجملٌ مبتورةٌ

تتداخل مع قحّاتٍ تغادر صدورًا كسّرها النيكوتين والقهر. كل رأسٍ يتوسل البقيةَ أن ينصتوا إليه للحظاتٍ كي يحصد كل ما في كرة رأسه قبل خواء الذاكرة، قبل أن تغادر الأمكنة خرائطها وترتحل إلى وجهاتٍ مجهولةٍ.

كانت نجيبة تنسج حكايتها كما لو أنها تروم مغادرةَ ذلك الاستهلال الممل الذي أفقد جمهورها رغبة الاستماع، همستْ مع نفسها: "ترى هل أخطأتُ البداية؟ اللعنة!". ثم تمتمتْ مع رنين سعالٍ قاحلٍ اخترق قصباتها.

كانت تفكِّر في سرد حادثة السوق القديم التي كانت الشاهدة الوحيدة على وقائعها قبل أن تغوص أصابعٌ جافةٌ في لحم كتفيها وساقيها أثناء رميها في سيارة إسعافٍ هربتْ مذعورةً من صخب المكان. كل الذي تعرفه، وربما كل الذي تتذكره، صوت علبةٍ فارغةٍ كان يطاردها طيلة الساعات الباردة، الساعات التي قضتها متخفيةً في حفرةٍ رماديةٍ خلفتها سيارةٌ منتحرةٌ بجمع عمال بناء قرب ساحة المدينة عند فوهة السوق القديم.

تكلمتْ كثيراَ عن حالة الانتحار في هذا البلد الذي تصفه بالبلد الملعون، وتوقعت المزيد من النواح والعويل في ثنايا هذا البلد المشؤوم الذي بدأ يغادر أحياءه وحواريه. كانت بين

الأجساد والعربات وأصوات الباعة المتجولين حينما بدأتْ المدينة تبتلع أحشاءها. لم تسعفها التفاتةٌ بائسةٌ لوجه الرجل الذي يقف متخصرَا، تتقاطع فوق صدره أشرطة رصاص صُفر تلتمع مع انكسارات أشعة شمسٍ غريبةِ.

فزعٌ شاحبٌ يهطل هنا وهناك. أحسّتْ بالرجفة تتسلق أطرافها مثل شتاءٍ قارصٍ ووحشيّ. كادت رقصة أطرافها المهزومة تكشف عَن جسدها وتفضح أمرها لولا عباءتها السوداء التي أخفتْ ملامح الأنثى فيها. كل الأشياء غادرتْ أمكنتها، وربما الأمكنة هي الأخرى تشتتتْ ولاذتْ ببقايا قبيلةِ عاد فرسانها للتو من غزوةِ خاسرةِ.

أحسّتْ بروحها تندس كذؤابات دخانٍ خافتٍ بين ضلوعها ولا حركة تشيدها الأطراف الذابلة. الصمت وقرقعة الخواء في صندوقها تتناهض متحاملةً خشية عويلٍ يفجع حياتها الآيلة للاندثار. خطوةٌ أو خطوتا ن تفصلها عن تلك القامة التي تزجّ بالسكون في علب صخبٍ مشوّهةٍ.

ما حدث في نهار الساحة المتربة، كان حدثًا عشوائيًا، كأنه شريطٌ سينمائيٌ قصيرٌ جدًا. كان عليها أن ترمِّم يقينًا صارمًا وتستجمع قواها لسنواتِ جافةَ أتت بها لهذا التاريخ الدامي كي تسرد الحكاية بلُغةِ لا توحي أن ما حدث كان حفلةً تنكريةً

سخيفةً أفسدتْ عليها نهارها الشرقي الغني بأحلام زيارة قريباتها في منطقة السوق القديم.

كل شيء بدا مفجعًا. رؤوسٌ بشريةٌ تُقطع ، وأحشاءَ تنسكب في فلاة الشارع المرسوم بقلم كرافيت منهك. حدثٌ مهملٌ، ولا فضول يشكل نأمة استنكار. اختفى حسّ البوح في تلك الساحة أمام وطأة الخُطى الثقيلة التي تسفك الدم والصراخ بسكينٍ صدئة. كانوا مجموعةً من الملثمين احتلوا الساحة ساعة ضحى، ونحروا من الناس ما يكفي، وفروا مثل ذئابٍ تلعق نشوةً حارّةً. هي لم تؤكد أنهم ثلاثةٌ، بل أشارتْ في هذرها إلى كتيبةِ من الضواري أجهزتْ على الناس وراحتْ تدمر وتدمر، وبعد ذلك اختفى الوضوح.

حينما لمحتْ نجيبة أن الرؤوس بدتْ مطأطأةً، متثاقلةً ، أدركتْ أن صوتها ما عاد قادرًا على تلمس صحوةِ خبيئةِ في ذاكرة أحد. التفتتْ وهي تبتسم علَّها تجد من يشاطرها ملامح ابتسامةِ مشحونةِ بالصراخ، ابتسامةِ تلوذ بنشيجٍ حادٍّ يخترق كل سنينها وتواريخها المعرّفة في ذاكرة جدّتها حكايات وأساطير أنتجتها ذاكرة الخوف والوجع.

اكتشفتْ نجيبة أنهم سبقوها للاندثار في حقول الرماد والصدأ. كانت تودُّ أن تختم حكايتها بضحكةِ ساخرةِ لتعادل

بها حجم التعاسة التي زرعتها أخبار اليوم في وجوه الجُلاّس، وتريح أعصابها من كوابيس الليلة المنصرمة؛ الليلة التي طحنتْ كل أحلامها الهشَّة وهي تركض في الشوارع العارية.

كانت كثيرة التساؤل عن ذلك العريَ البارد الذي نشب مثل جربٍ كالح في جسد وأذرع مدينتها الجميلة التي كانت تصفها بصبيةٍ مدللةٍ تلهو مترفةً بين بساتين الرمان والبرتقال وتغفو كل ليلةٍ هانئةً متوسدةً أذرع نهر ديالى المتعملق في ارتفاع حوافه وشطآنه.

بدتْ الدروب خاويةً، خاليةً، لا صيحات، لا عويل، لا هسيس ينبئ بثمة حياة تبدِّد هذا الغموض الآتي على وضوح الأشياء والأمكنة. راودتْها فكرة الرحيل، الرحيل المعنون إلى حواف المجهول، إلى جغرافيةٍ مبهمةٍ لا تشبه جغرافية مدينتها الجميلة. رأتْهم يحملون أسمالهم ويبتعدون، منهم من عبر الشارع الرئيسي وغاب في دخان النهار، ومنهم من التحق بمعسكرات العشيرة التي نهضتْ من كهوفها بعد غيابٍ طويلٍ. ارتحلوا بين منحنيات أجسادهم التي توزعت بين أحياء التاريخ والمؤرخين، منهم من أدركه الغروب في متاهة الصحراء يعلِّق عيونه ببقايا سرابٍ خلَّفته خيول الفرسان التي أحاطت بقامة المهدي المنتظر، وبقيت ترقب الرمال وهي تدفن القامات

رويدًا رويدًا حتى أخر حلم مشرّد قبل شروق آخر أكثر نحيبًا من أمسه.

أشعلتْ نجيبة سيجارتها ، مع زفرةٍ حادةٍ هيّأتْ بقايا ذاكرتها لسرد أكثر المشاهد سوداويةً في حياتها وحياة معظم الرؤوس التي تمارس الإصغاء والتلاشي في آنٍ، تشعر أنها لم تزل تحتكم على قدرة العجائز الوقورات القادرات على نسج الحقائق من خيوط الحكاية.

رمتْ نظراتها في متسع الإيوان المفتوح. كانت صورة الأمس تتدلى بين أهداب الأفق المترب ، وراء الشارع وبين الدروب والأزقة، كانت الحياة تتدفق بين سيقان الصِّبّية وهم يلعبون كرة القدم ، وفوق السطوح مجاميع من الطائرات الورقية تهاجم أطواق الحمَام الأزرق.

بدتْ المشاهد متآلفةً متكاملةً. الحياة تتشكل فوق شفاهِ نجيبة وهي ترتجف لحظة ضعفٍ، بين رموش تتراقص لوميضِ آتٍ ، خلال تدافع أجسادِ رخوةِ قي قلب الساحة ، أشياءَ هنا وهناك ، غيومٌ ومطرٌ ، زرعٌ وحصادٌ ، لحظاتٌ تلد أخرى ، وأصواتٌ تقتحم الهمس.

هناك في عُمق الساحة كانت الحفرُ وفوّهاتُ البراكين تتسعُ وتتسعُ لتستحيلَ مقبرةً جماعيةً. وما عادت هناك

عرباتٌ محملةٌ بالبطاطا والباذنجان ، ولا رؤوسّ تملأ سماء المدينة بالوجود. حدثت فجوةٌ رماديةٌ التهمت الأشياء والأمكنة، حتى رزنامات الزمن الشمعي مزقتها أحقاد الرصاص وأسنة حراب المتخاصمين مع الحياة.

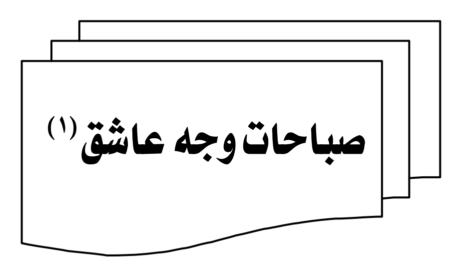
ذبلتْ رموش نجيبة مع أخر زفرة دخان أغرقت مساحة وجهها.. بيدين مرتعشتين بدّدتْ سُحب الدخان، ومدّت رقبتها لتستفهم الوجوه المتحلقة حولها. لوهلةِ أدركتْ أن الفراغ اتّسع في غفلةِ من زمنٍ شمعيّ مستفزّ، وابتلع الرؤوس والأجساد.

حملتْ جسدها المتداعي وخطّتْ بضع خطواتِ صوب البوابة الحديدية المطلية باللون الأزرق. كانت الدرفات متباعدةً، صوت الريح يجري بكثافة في الممرات الضيقة، ولا نأمة ترشد حدسها لبقايا رغبة في سماع كلماتها التي بدت مثقوبة المعاني. الرماد والغموض أطّر المشهد الكرافيتي لمنحنيات المدينة.

استطالتْ رقبتها واستطال استفهامٌ غاضبٌ في ثنايا ذاكرتها. شوارعٌ عاريةٌ، دروبٌ تحتكم صافرات إنذارٍ ومكبرات صوتٍ... رفعتْ رأسها وفي فمها سيلٌ من الشتائم ، لا أحد يستنكر عليها نشيد البذاءة في كلماتها الأخيرة، دارتْ حولها، تحرّتْ الشوارع الفرعية وساحات الأحياء الشعبية ، بدتْ

تتلاشى، تتراجع. صوت العلبة الفارغة كان سوط الريح القاسي الذي بعثر وقارها، ما عادت راغبةً في إكمال حكايتها بعدما تأكدتْ أن الرؤوس من حولها بعثرتها جغرافيات الخوف، الشوارع والبيوت باتت متوجسة من كائناتها، من أرديتها، من صخبها اليومي. خطوط مشوهة أنتجها قلم كاربوني فقد سواده، وبقايا طباشير رمادي يؤشّر إلى عربة عسكرية وثلة جنود، هناك، في مرمى بصرها، نقطة تفتيش تغلق فوهة السوق القديم.

ديترويت - ٢٠٠٦



- نص سردي -

▪ صباحٌ خارج المجرة:

في الصباح أحاول رؤية ملامح وجهي في المرآة، أو أحاول رؤية صورتي الوهمية خارج حقيقة وقوفي، وأمام لوح المرآة الصقيل أعترف تارةً وأهذي تارةً أخرى، أما الهذيان فهو طفيليّ أصاب ذاكرتي بعد خيبة مريرة في مسرح الحب التقليدي، أو مثل كل الفجائع التي تسجِّل تاريخًا يُحفظ في دائرة النفوس والأحوال المدنية.

الاعترافُ كُنيةٌ أخرى للمرارة، وربما وجهٌ أقل بشاعةً للهزيمة، ولأن الهذيان يمرّ في غفلة من سلطان الذاكرة والعقل؛ لا أحد يبالي بكارثيته مع أنها تمثل بحراً من الألم، أما الاعتراف

(١) نص مشترك مع القاصة الأردنية رقية كنعان.

فهو ولادة وطلق ، حضورٌ ضمن حشد من المبررات ، أو هو الفضيلة في الوقت المناسب ، وزمني الآن هو زمن الكتابة المسكونة بالاعتراف ، أو زمني الذي أفلت من قبضة الذاكرة يومًا وما عاد في حوزة التسبيح ، ولأنه زمن المرارة لا بد من الخوض في المحرمات؛ المحرمات التي تدلُّ على مفتتح السذاجة في كل انفعال أعنونه عشقًا أو حُبًا نرجسيًا حدَّ التوهُّم، وحتى أصل للحظة اليأس من صمت مشمّع بالسكوت الثقيل، سوف أتهادن مع خطايا قلمي، وأقصد أسفار الحكاية معي، الحكاية التي تؤجِّج كل محظورات القبيلة ، وتؤرشف كل غباءات المساءات المقموعة ، حينما ندخل نحن أجيال التيه في خيمة الحلال من فتحة ردن العباءة المعلقة في محراب تراويح الخفايا ، ونختفي ، هكذا تلدنا حركة الفعل المضارع صيغة معلولة لماضٍ مكسورٍ حدَّ الانهيار ، ويطلب منا ذاك الشهريار المولود في ظلمة الخيمة أن نلحس لذة الفريسة قبل انطفاء قامة القمر المدون تحت كنية رجل أعور في كيس الحكايات... هكذا كنا نمارس الحب المبارك في كلمات العجوز وترتيلة المساء ونمتطي كل ليلة جسد الحلم المتفلت نتف ضجر تخشى ارتفاع قامة الجدار المتسيد كالصدأ ونتراكم مثل كل الأشياء البائدة... ولأنه زمن التصريح خارج بطاقات المسموح ، سوف أجرح خارطة وجه أبي الملثم بشماغه المرقط وأدوِّن تكوينات عشقي

خلافًا لوصايا العرّاف الذي يصف لنا ماء النهر حيث نغرق فيه... ترى هل عليّ أن أخبر والدي بحكاية عشقي حتى يقنّنني وجرعات حبي من خلال نوافذه التي ترتفع حدَّ ركبتيَ، وأترك بقية جسدي يتوارب في انحناء المفجوع بقامته، ويبارك صباحاته بمبخرة مسجورة تبدِّد الوقت دخانًا وتعاويذَ مسحورةً تساوم فكرة إبليس وشهريار معًا.

هذا زمن التيمم بحضور الماء، وزمن العشق مع هرولة النجوم في مجرة غبارها همس، وأفلاكها غبشة مطيعة. وحتى أكمل مدونة اعترافي عليّ سماع الصوت المبثوث في المجرّة من حولي، لأنه يمثل اعتراف الوجه الآخر في مرآتي، وجه عشتار التي تحتضن بكفيها ثديين فيهما الحب والحليب والعذاب، وبكفيها تحلب الغروب لتشكِّل وجهة الاكتئاب.

"وبعد إذ أرث اللامبالاة بآدم وانفض مكر جدتي الأولى وجدتي المتعللة بالحكايا المنزوعة من ليالي السهر المدفّأة بوهج نار الترقب لكأس الموت وصياح الديك المتآمر ضد الجلاد، أراني أنجذب بكل ما في قدرتي على الانبهار لحديثك المصفى عذوبة وشخصك المرح، نتبادل قلب الحكايا ونرسمها من النهاية إلى البداية... أي شيء فيك يشدّني؟ أهو اليقين الساكن في عينيك؟ التواضع الآسر الذي يشي بالزهد في العالم؟ أم التشابه القاسي

معي في بعض شجني ؟... وطالما ردَّدتُ أنني لا أجيد الصداقة مع المتشابه معي لأن الاختلاف وسيلة جذب وتقاطع والتشابه خطٌ موازٍ كثيراً ما نهمله ونحن ننظر إلى أمام في شعاع العمر المنطلق إلى حيث لا ندري متى النهاية... مرحٌ يشي بحزنٍ كبيرٍ ووحدةٍ وغُربةٍ عن هذا العالم تداريها مرحًا وابتسامات ، وأنا بالكاد أنزعُ عباءة فشلي بعد أن رميتُ بكامل أوراقي في مغامرةٍ لم أحصد منها إلا الخذلان ؛ خذلتُ نفسي بنفسي ، وارتضيتُ بعنادٍ غريبٍ أن أستحضر دوام حبي إمعانًا في طبع الوفاء الذي ما خانني يومًا، ورفضًا لفكرة الفشل التي تجرعتها علقمًا غطَّى العسل الذي جنيته من أشواك الحياة قطرةً قطرة".

خارج اليقين والشك أجد لكلماتها متسعًا وهي تحرث في صمتي ذاكرة العيد ، تنمو كما لو كانت موعدًا للحنين ، وتتقاطع مع ذاتها الموشمة بالخوف من فكرة تجريدية تدعو لتدوين طقوس الانبهار حُبًا ، وتزرع في أوراق تأملي حافزًا لمراجعة زمن الخيبات وإطلاق عنان ممارسة الانشغال بمشهد آخر لـ"عشتار" وهي تغتسل نصف عارية في تسابيح دجلة لحظات الغروب ، في وقت يركع "جلجامش" معترفًا بخطاياه حينما كان يرمي الأحجار في سكون البحيرة التي تنام في أحشائها الحوريات الجميلات... في اللحظة التي تحضر فيها المرأة يختلط الاعتراف بالهذيان.

▪ صباح الرؤيا الأولى :

كنتُ منشغلاً حينما نقرتْ بوابة الإلكترون يدٌ خفية، وثمة نغمة رقيقة لصوت يتبرعم خيوطًا مبرسمة ، ينسج احتراقًا لسيمفونية تبتدئ من حافات الأزل البعيد، "هل تجود علينا الحياة بحلمٍ ثانٍ؟ أم لعلَّه وهم مقدمة لصدمة ثانية؟!... وهل كان هناك حلمٌ أول وأنا أستشعر العطش في أواخر حلقي فأتلمس - وإن لا شعوريًا - سرابي القادم ؟"، يدٌ ناعمة تجوس السحاب الشائك ، فكان الاستفهام يتحرّى فلسفة الكلمة ، وكانت الحركة تلدُّ ومضة سكوت طفلٍ؛ سكوتٌ يتجاسر تعليلاً خفيًا.

ها أنا أتأمل اللحظة الهاربة من متّسعي كي أحرِّك أناملي قبل شفتي. "وأخرج من سجن ذاتي ، أحاول أن أقفُ على محيط الدائرة محدِّقة إلى المركز مغمضة العينين فأراك هناك بقلبي ، وأعرف أن الحياة بأطيافها قائمة منذ الأزل ، ولن يضيرها في شيء أن لا أرى إلا الجزء الذي أردتُ منها. أراك هناك ولكن الحواف مرهقة في وقوفي على رؤوس أصابع طالها الوهن وكفرت بالانتظار... أحتاج مرآةً تكشف لي مجاهلي من خارجها وتصل إلى أعمق نقطة في أدغالي الغافية على غموضٍ بكرٍ لم تعبث ببراءته يدُ إنسان ، فهل تكون مرآتي التي أرى

نفسي من خلالها كما أنا حقًا لا كما أريد ؟" وحين يبهتني الوقوف ، تنساب كفي المجروحة بترددي كي تقبل دعوة اليد الواثقة من مثولي مع مسودة وجود ناحلٍ، "نعم، هناك أنت تقف شابكًا يديك محدِّقًا بحنان ولكن، أأقول لك أنني لست مؤهلة لوهم الحب بعد؟ أأناقض نفسي وأنا من خُلقتُ عاشقةً وشكَّلتني الحياةُ قصيدةً قوامها موسيقى وأبياتها شجن ؟ أتشكِّلني بعد إذ كتبت؟ أتنشئني نشأة أخرى؟".

كانت مسرّة صغيرة دوَّنتها الذاكرة، وكانت نشوبًا في سِفرٍ، تموجد أصرّ على إعادتي للحظة استجدائي التشظي، أو مرامة اللواذ مع أشيائي ، "وهل لا بد من شاعر لتكون القصيدة ؟ أيكتبها أم يكتشفها ويعيد إنتاجها من خامات الطبيعة ؟ وتعيد كتابتي وأنا أنظر بذهول بين الغفو واليقظة، فكثيراَ ما اقتنعت بأن القصيدة عندما تعاد كتابتها تفقد شيئًا من سحرها البدائي حتى وإن بدت أكثر عمقًا وتجربة؟" النقرة لم تكن في جدار هلامي كما تصورت ، ولم تكن نقرة بمعناها التقليدي ، بل كانت رنينًا تسلّق وعيي وأجبرني على مغادرة أسيجتي ، كل أشيائي وأمكنتي تلبّسها الخدر وما عادت قادرة على إسعاف زمني المتبدد من رزنامتي القديمة.

من يقنعني أن النصوص التي أعدمها كُتَّابها قد لا تكون أجمل من تلك التي نشروها وعشقناها؟ هل أنا على أبواب زلزال يدعوني لتثوير نفسي باسم الحب؟ هل أيقظ جان دارك الغافية في زوايا أضلاعي والتي رضيتُ لها الاحتراق دون أن أكلِّف نفسي عناء مقاومة اللهب، أو أمدَّ لها يد المساعدة؟ وأعلنتُها قديسةً بعد أن مشيت في جنازتها وجنازة السحر الذي ارتكبته يومًا ما دون قصد؛ فما زادها إلا شقاءَ.

كانت اليدُ الخفيةُ تنسج ألفةً، تنسجُ تسابيحَ حكايةِ لم أشأ ابتداعها خوفًا من ملامح ماضٍ قد يستيقظ، أو جرعاتِ ألمٍ قد تتفاعل من جديد لتعيد تشييد الأكاسيد الموجعة لشراييني وأديم حياتي، فكانت لحظة المساومة تجترح ميول التسويف وتبادر لبدء آخر بدأ من حيث تبدَّد، ونظرة تطال الكامن من خضرتي المدثرة بتشابك أدغالي، مثل انتهاك حتمي لنسيج الظلمة في كهولة الليل.

ما أشقاني والاستسلام والانتظار لشيء غير محدد ما يحكم خطواتي منذ زمن ويسمها بالتيه والعبث. أتمرد؛ لكن دونما كتاب ثورة مقدس، فلم يعد لدي ما أؤمن به عدا أن كل شيء إلى عبث، وثوراتي كانت كزوابع في فنجان ينقصها اليقين وكثيراً ما استحالت فجائع لا بطولة فيها إلا للدمع والبكاء، ولا ثقة

فيها بآدم لا يقوى على الخروج من جلد شهوة البقاء في الرحم جنينًا، ينقصها اليقين ذاك الذي أراه الآن يبرق في عينيك وينير جبينك فأستشعره ينبثق من بين أضلعي؛ وللمفارقة برغبة أقل في الثورية والتمرد وكأنه لا يحتاج انفعالاتي ولا يحتملها فيعلنني للمرة الأولى عاشقةً متوثبةَ الروح مخضرةَ الفؤاد ولكن بشكل امرأة تعرف هذه المرة ما تريد، كانت نغمة، أو تواشيح حضور ، للهناك كل البيادر تجهِّز لموسم الحصاد ، وموسم البذار وشيك، وللهناك شهرزاد ترهف استلقاء الليل في ذاكرة المكر، تتسلق بكلماتها جدار التوجس لتمسّ بأناملها كؤوس الزنابق البريّة المخدرة برذاذ الفجر، لأعلن رؤية انشغالي بهاتف أوفيليا المبثوث في هضاب أدرك كُنه جدبها.

"ينتابني الخجل معك دون مواعيد ، فأنت لم تشأ معاملتي بسطحية النظرة المعتادة للأنثى ، وإنما بروحانية أفتقدها منذ زمنٍ حتى وإن كنتُ أنتظرُ نظرةَ الاشتهاء التي اعتدتُها غرورًا لأشعر بأني مرغوبة حتى في قمة زُهدي، وهي النظرة التي كثيراَ ما نفرّتني من الرجال عندما تُلقى في غير أوانها، فيعطون المرأة انتصارًا مبكرًا يفقدها الرغبة في اكتشاف مرحلة الـ "ما بعد" وينهون الحكاية قبل أوانها، كما لا يقر الفن الخالد". بذر كلماتها يعتاش في أديمي، وسحر انبثاقها في الفلاة المسورة بأنفاسي يسقي قحط روحي ، فأصغي إليها ،

"نعم أشعر بالخجل معك وربما الحيرة، لأنك تخالف توقعاتي وتكشط ما علق بي من سطحية المرور بالبشر؛ رغم توهمي عمق الإبحار. مثلي تمامًا لا تعبأ بالقشور الزائفة ولديك من المباشرة ما يكفي لاتهامك بالسذاجة من قبل مغامر خبيث، لكنني أشعر بك تلامس شيئًا في قلبي برفق، وتقلِّب أوردتي شرايين معطاءة تنبثق من القلب وتصبّ في كلِّ دربٍ يؤدي إليك، (الذاكرة ملكك أنتِ ولن أخوض فيها إلا بقدر ما ترغبين لي بذلك)، ربما كانت أجمل مما أردت ولكني كنت راغبة في البوح لك. كنت راغبة بأن أظهر أمامك عارية، لا عري تبذل؛ ولكنه عريّ وضوح أنزع فيه أقنعة التجمل قطعةً بعد أخرى، تأصيلاً لحقيقتي أنا، لتحبني أنا لا كما تخيلتني أو اشتهيت كينونتي، وليتني أعرف من أنا!"

كانت اليدُ الخفية تجوس مكمن رغبتي، تراود قامات العبث المنفلت في مقدمات يقظتي، وتزرع في قيعان الطين والطحلب بذور يقين يوشك أن يزهر الحكاية.

▪ صباح التباريك:

ها أنا أدِّون كل ميراث ذاكرتي، وأتجرّأ لشطب دهرٍ من الانزواءات كي أتوضأ بملامح صُبحِ أعلن الحضور. أيقنتُ أن رغبتي في إحصاء خطواتي صوب رائحة الاحتفال تسبقني في حسم مرارة البرد فوق شفتي، رغبتي التي تورق نظراتِ تتراقص خارج خيمة شهريار المتبدد في براثن حكاية مسائية، ومع نشيد الغبشة المندس في برزخ الوقت تكبيرة تلوذ بقامة الرب، يتكسر هامش الصقيع الناشب في دائرة الشك والشجن من حولي، أرى، أسمع، ومن قال إن ما قد أقوله هو حقيقتي لا ما أتوهمه؟ أوليس تسللك إلى قلبي وتجاوزك للجدار الناري بحدِّ ذاته داعيَا إلى إعادة النظر في كافة مسلماتي والحقائق؟! تبّا لأينشتاين إذ يحضر بنسبيته حتى في قضايا العشق، وأركله باحتقار كمن ترغب في قتل من جاء بعكس ما جاءت به كتب القلب المقدَّسة، ولو أدَّى ذلك لحرق ما لا يناسبني، ولإرهاب معاصر أكون فيه الضحية والجاني، فيكون مني هابيل وقابيل، وأقتل أوهامي بحثًا عن يقين... نعم أرغب في يقين يظل يقينًا أبدًا، وأحتاج أن أؤمن ولو تطلب الأمر أن أؤمن بوهم شريطة أن يكون وهمًا دائمًا.

أتوقع رايةً تتسلق ظهري، وترنيمةً تدعو بيادر عشقي الخابئة أن تمارس حفلة تدوين المعنى، المعنى المرافق لموسم النزف والأضحيات، ومن حيث تشير سبابة والدتي، أمدُّ قدمي اليسرى لأجرح صمت العرّافة وكاتب التعاويذ في كهوف حضارتنا، وأخال نفسي مارقة في سفح الخطيئة الوردية، أسمع: أدخلْ بقدمك اليمنى كي تحبّ كما يشاء سيدنا النبيل، وتسقط الجرّة عند قدمي لتتشظى الحكاية رمادًا يملأ أخاديد الوجه وحرثًا لم يتبرعم بذاره، فجائعي تتلون بالغناء مع استسلامي للشوق ودعوة الفرح المتراقصة في عينيك الحزينتين وها أنت تدعوني للمستقبل بفرحٍ أجمل ما فيه أنه موعود، وأجمل الأحلام هو ما لم نحقِّقه بعد ولم نفقد أثر بلوغه شهوة الحلم وأمنيات الوصول، تحتاجني بكل ما فيك، وإلا ما كنت تشربت حديثي كالأرض العطشى منذ أمد... أنت مثلي ووجدتني في الوقت المناسب الخارج من رزنامة الصدفة إلى تاريخ المواعيد ولقاءات العشاق، صحيح أنه كان من الممكن أن نلتقي في أوقات ماضية ونحن نعبر الأماكن ذاتها ونناظر ذات الوجوه، ولكنه الوقت المناسب بالنسبة لي؛ أو هذا ما أتخيله؛ فكل الأوقات مشرعة أمام الحب متى ما حضر، ومن ذا الأحمق الذي يقول بغير ذلك؟ لست نادمة على بضع حيوات كان من الممكن أن أحياها معك، أن أكونها أنا تمامًا،

فلا معنى للندم ولا وقت له ، نعم لست نادمة بقدر ما أنا مأخوذة على بساط نسيجه الأحلام إلى كوني معك ، وما أحلى أن أكون معك.

في صباح التباريك هذا سوف أمارس علمانيتي في تحدٍّ وتجاهلٍ لعباءة الرّاهب المندحر في ميراث جدّتي ، وأفترض أن نداءَ لازورديًا يتشكل عند حافات الأفق المحكوم بالابتعاد ، وفلسفة يتناولها قلب مقصيّ كل الوقت عند هوامش يزدريها العقل ، وأتناغم وافتراضات الوجه الآخر ، الوجه الذي حضر متجاهلاً كل صيحات التساؤل ، أو لأقل هي المرأة التي كانت تقف وراء بوابات الأثير ترقب حوار يقظتي ولا مبالاتي، وكانت تعيش هاجس يقينها الذي أجبر كل حشود فلسفتي على قبول المساومة ، تلك المساومة التي كشفت عن وجه نظر لعشب الربيع ، وآخر مكفهر لمداد الصحراء ، فكان صوتها يحرث كل الحقول المترقبة: " وبعد أن كنت قد ألقيت عصا الترحال في وادٍ غير ذي زرع ، لا ورد فيه ولا شوك واكتفيت بالرمضاء والهجير يقينا لما بقي من أيامي التي ارتضيتها بتخاذل مني صحراء من التيه اللانهائي الحياد في مفازات قلبي ، حيث لا شيء يسعد ، لا شيء يشقي ، لا سراب ولا شيء يهم!".

حينما انقطع صوتها كان الصدأ ينشب في أفقي غيمة مثخنة بالمطر ، فأعود لبذر كلماتها في سواد أيامي ، وأقرأ تساؤلاتها : "وربما إمعانًا في تأكيد أفكاري حول العشق الذي يطرق قلوبنا ويكويها مرة قاتلة! أيزهر الحب في قلوبنا ثانيةً؟ وإن كان الأصح أن أسأل إن كان هناك حبّ أصلاً، أم أنه وهمٌّ نعيشه بدعوى الاحتياج إلى آخر ،؟ ولكني الآن أنسى كان وأعيش مضارع أوهامي وأتساءل: أهناك حُبّ للمرة الثانية؟ لطالما نفرتُ من هذه الأفكار واعتبرتها نتاج اللهو العاطفي والشتات ، أو لم أكن امرأة الخيار الواحد كما وصفت نفسي حتى من قبل أن تتفتّح أنوثتي أو أدرك كُنهها.

▪ صباحُ تشكيل الوجوه:

ومثل كل التساؤلات التي تنتج ألمًا كانت تحاور ذاتها، تفتِّش عن ألقٍ يبيح لها الخوض في متاهة اللآّئب في أعماقي، "وإن كان ما يشدني إليه هو ذاك القرب من نفسي وجوعي إلى الحنان والتفهم الساكن في عينيه، فأي شيء رآه في ليلقي عصا ترحاله بهذه البساطة المفاجئة بين يدي ؟! ألعلها الغربة الساكنة في نفسه وجد صدى لها يتردد في سواد عيني؟! لا أخلو من المزايا ولكني حتمًا لست الوحيدة، ولا أخلو من عيوب طالما خلت نفسي بها وحيدة، مزاياي في حالات مزاجية أخرى أسميتها عيوبًا، وليس هذا إلا تواضعًا كاذبًا، ولا يحضرني اسم من قال إن المبالغة في التواضع هي أعلى درجات الغرور، ولكن أي معنى للغرور أو حتى التواضع في أمور العشق والحب، فالأمر لا يعدو كونه ضربًا من السذاجة والوهم، لأن المفتاح ثنائي التشفير ومهما كنت متمتعًا بمزايا لافتة فإن ذلك في الحقيقة لا شيء ما لم يشعر من تحب بها ويراها كما تراها أنت وربما بصورة أكثر نقاءَ وشفافية، بل أي معنى لأن يرى مزاياك ما لم يكن من توافق بينها وبين منظومة العيوب والمزايا لديه، ومهما فلسفت الأمر بحثًا عن السر، فذلك هو العبث بعينه... الحب هو إبداع الخالق فينا الذي لا يحتكم

لأي مقاييس نقدية شأنه في ذلك شأن أي إبداع آخر، يثبت نفسه ويجري كطفل ضاج بالحيوية والجمال ليجري وراءه النقد محاولاً فهمه وتأطيره دون جدوى بالأبوة والوصايا".

كانت كلماتها تبثُّ أملاً طريًا يستدرج كل مخاوفي لبحيرة هادئة تعانقها أمواج رقيقة... أسمع الهاتف الذي يبشرني بالقدرة، كن حقيقيًا ضمن انبعاثك في رحم الحكاية، الحكاية التي تلتها لك عشتار؛ تلك الكائنة التي ولدتها الغيوم والمساحات الشاسعة فوق البحار والمحيطات. عشتار التي حملت لك بكفيها ثمار المنِّ والسلوى، وألفتك بقامتها الملفعة بجريد النخيل وأغصان الزيتون، عشتار التي سارت فوق مسامير خوفها وقصدتك في كل الأمكنة والأزمنة، "أشتاقك حتى وأنت معي، ولا أرتوي من فيض حبك الذي يعمِّدني من خطايا الحزن وسذاجة الفرح وغباء التهيب، تهبني حزنًا أكثر إتقانًا واستعدادًا لا نهائيًا للفرح، وتطلق المقيد من عصافيري بقيود كان ويجب، وتجعلني أقرب لله، للمطر، لرائحة الأرض التي ما زرعتها يداك ولكنها تحتضنها منذ ما قبل التاريخ وإلى ما بعد الحب، أشتمها فيك، فمنها أنت، ومنها أنا، وإليها طينًا وعشقًا نعود"... أرى ملامح وجهي تنسلُّ من براثن غبشة مطعمة بحبات ندى خجلة، وأرهف السمع: "أغوص في بحر

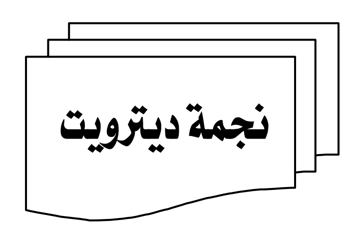
عينيك ويأخذني انسجامك في كتابة رسالة أكثر.... ، تلك التأملات على جبينك وابتسامتك المشرقة تمنحني ثقة بأنك القادم من أسطورة حواء وآدم حيث البحث الأربعيني عن الآخر ، فالضلع يحنُّ للعودة ، وتسمع أغنيات القلب النابض بين أخذ وعطاء ، وأغنِّي لأكون طائرك المحكي ، وأدَّعي أن الآخرين هم الصدى ، وأمضي أبحث عنك وأغنِّي ، أغنِّي لك ، وتأخذني الأغاني على جناحيها إلى أذنِ قلبك ، أوشوشها ، وأعدك بألف ليلة وليلة من الحكايات الأسطورية تتشكل في القرن الواحد والعشرين بروحي أنا ، فأسرج خيل الحكايا وليبدأ الصهيل... ألملم سنابل القمح من بين حروفك وأطعمها لعصافير مهجتي خالصة لوجه الحُب ، وأرتشف قطرات حكايتك الناعسة بين سطورٍ تحكي ولا تحكي ، وتجدل الشمس قصائد من وله شهرزادي ، السحر يهذي بلغة لا تستشعرها سوى القلوب مرهفة الإنصات ، أحبك وأسلم لك ما بقي من أيامي ، وأحشد لك فجائع أمسي قربانًا لومضة فرح تبرق في عينيك أو تلوح بثغرك. يتهادى جنوني الهوينى الهوينى لأعيد إنتاج الحقيقة على هدي عينيك ، وأنسج الشوق من أهدابك كُحلاً لعيني ، ووعدًا بقادم أحلى ، بالحب أؤمن ؟ ربما ، ولكني أعرف أني أؤمن بك أكثر. فللحب أن يفخر بأنه قادني إليك ، وأنا أعرف أني منك إليك".

وحين يتكلل رأسي بتيجان اللوتس التي نسجتها أناملها العابثة بترف الحلم؛ يشق وجهي غبار الفجر ويتوضّأ بشعاع أبنوسيّ يستحيل قامة قزحية تشكل جسد عشتار وهي ترقص فوق أسوار مُدني المحتفلة بموسم الحرير، فأصحو كل يوم، كل عام، كل قرن، على نشيد ندائها الجميل، كلماتها التي تقارع الكسل وتتحدى هضاب التقاليد كي تبارك فرح روحي بانبثاقها في جسد الكائنة المدللة ، "أشتهي العبث بذاكرتك دون أن تكون معي لتراقب خطوي ، فأرفع الغطاء عن هذا المخبأ وأقتحم ذاك المتواري وأرقبك وأنا أمر في خلايا ذاكرتك، ولكني بسذاجة خالصة فيها كل القناعة الواثقة، أرمي تلك النزوات وأهزأ من فضولي فلكأني معك أتنازل عنه جانباَ، لأن حضوري بك يزيل كل لبس ويبهت ما عداه من صور عالقة في الذاكرة، وما من معنى لأن أغار من وهمٍ عندما أكون الحقيقة ، وغروري يكبر بك ، لأجلك ، وأردِّد : سأمحو بمشعل قلبي أية ظلال سوداء كتبتها امرأة عبرت طريقك ، أو تغضنات زرعتها شفتاها على جفنيك أو حفرتها أناملها على سطح قلبك النابض بي.

سأتولى تشذيب أزهارك التي احتفظتَ بكامل عطرها لي دون أن تقصد، وأحتضن شوكك بباطن كفي فتستحيل وروداً

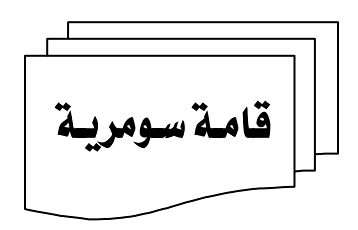
تنمو وأعشاباً تخضر بين أناملي، أنت حلمي الذي لا يزول، وحقيقتي، وأنت أغنيتي التي غنَّتها الدنيا بصوتٍ خافتٍ التقطه قلبي على ذبذبته الخاصة فعرف أن اللحن له فغنى كما لم يعرف من قبل الغناء، يا جنودنا التي تآلفت، حاربي الجهل والحزن والبشاعة ولنخلق واحة الجمال بشهرزاد تغني وشهريار يحمل قلبها تاجًا على الجبين ولا يملُّ من القول المباح مرددًا حتى ساعات الصباح الأولى : ارجعي يا ألف ليلة العطر".

أقف بكامل قامتي أمام المرآة، أتأمل صدأ الحلم الطويل الذي يبدأ من أهدابي ولا ينتهي أبدًا. هو مشهد جسدها وتحليقها مثل طائر مغرم بالحقول، ثم لا يلبث أن يأتيني ذاك الوجه السابح في صلواته، يقترن بلوح مرآتي، يشكل ملامح لا ظلاً لملامحي، حينها أصرخ بأعلى صوتي لحظة مروق قامة عشتار في أهاب مجرتي. كانت كل أفراس المدائن تحلِّق من حولها بأجنحة نارية فترتجف أوصالي لذلك وأرى وجهي يحتفل من جديد.



كلُّ مساء، يجلس عند حافة نهر ديترويت يتأمل الأفق المتواري خلف البنايات الشاهقة في مدينة ويندزور الكندية، يسند ظهره لصخرة ضخمة بركت بتهدّل عند الشاطئ المغطى بعباءة طحلبية ممزّقة، في الهزيع الأخير من الليل يدسّ خيوط أنظاره المتعبة في رماد النهر المحتفل بالأضواء والنجوم المتصارعة في تدوين مشهد الحضور، قوارب صغيرة تمرق خلسة تدنِّس رومانسية الشاطئ المحتفل بالسكوت، صوت باخرة متعبة يتسلّق الأثير، وطاويط ليلية تعبر المسافات دون تذاكر سفر... يتشكّل المشهد في قحالة الفجر المضمّخ بالبرودة، كائنات مبهمة الملامح تلتم في حلقات عشوائية تمارس الرقص على بقايا نغمات موسيقية ثملة أدرك عازفيها الوسن، ثمّة جازٌ قديم يشرخ بصوته المتشظّي بسملة سكونه ويحيله إلى كائن متذمّر من صحوة السكارى المترنّحين على ظهر السفينة القديمة التي تجثم في الشاطئ الطيني القريب منه مثل فرس نهر

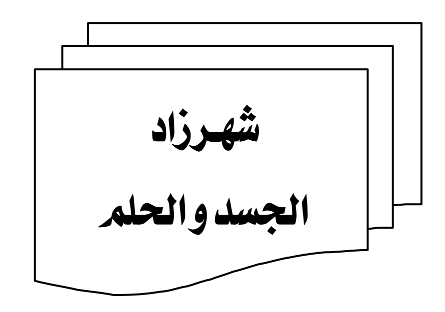
عجوز أنهكها الترحال بين الماء والطين... بدت رأسه أكثر قلقًا وهي تنسج فكرة غيابها الأول، كل الأشياء التي تسمّي الملل في قاموسه حضرت إلاّ هي، فتحول إلى كائن مرتبك يعلس لحم شفتيه مواسياً روحه التي تشرنقت بخيوط الضجر.



كُلَّما حاول رفع نظراته إلى هامة الجدار الأجرب أسفل السقف تنهره عيونُ جدّته المكبّلة بحدبة أبدية، فيُنكِّس رأسه في طقوس لا ترسم من الهزيمة إلاّ مرارتها ، يزفرُ ، يحرق الضفاف الراقدة أسفل شفتيه فتطيرُ عصافير السكون ، تغزو خرائط الأبنية العتيقة مساحات ذاكرته ، يعاود رزم قواه الشمعية كي يلثم حافات الخوف القاحلة في كلماتِ العجوز التي تناصبه التجهم والملامة ، شيئًا فشيئًا تنمو رقبته وتطول علامة استفهامه ، خيوط العنكبوت اليافع تتشبث بألياف أحلامه ، دعاسيق صغيرة تهرول خلف قوس قزح الشآبيب الملونة ، مجرات التراب والصدأ تأكل ملامح ابتسامته فتبدو قسمات وجهه صارمة وهي توبِّخ الفتاة التي أطلقت خصلات شعرها السمراء تلاعب الريح، صوت بارد يكنس زوايا السكون والخواء، تتأوه القطط بألسنتها النارية، كل الرؤوس تحتشد في أفق اللوحة المحتفلة بقامته السومرية.



تدور في رأسه الفكرة مثل فقاعة طائشة ، كانت تقف بقامتها المصندلة أمام لوح المرآة ، شعر دامس السواد ينعش حريق السنين ، شفرات عيونها تحكي لصمته لماذا النوافذ تمطر كل الوقت حنيناً وزخاّت سحرٍ تبلِّل جسده المزروع عند حدبة الشارع اللاّهث في سماء تموز القاسي ، يحرِّك قدميه المغروزتين في إسفلت الضجر ، يمسك بخيط أحلامه الملفوح بدبق الظهيرة ، عيناه تتوسلان الدرفات الخشبية ، سكونٌ وسكوتٌ يوسّم أنفاسه ، كراتٌ تتدحرج في صندوقه... يرتجف ، يقف ، يلتفت ، يرفع رأسه إلى غابة العيون المتدلية ، كل النوافذ مشرعة تتأمل تلاشيه في وقوفه السرمدي... نافذتها الوحيدة غلّفتها خيوط العنكبوت وتسلّقت أطرها أغصان اللبلاب الغضة.



تميمة اعتراف ، قالها بعد حين ، عندما لفظته الحانات وغسلتْ ظلَّه الأرصفة ، أنا أعرف أن خطيئتي تقتفي إثر خطاي ، ووجع كالجمر يتمحور تحت ضلوعي ، ليتك تفهمين ، يتيم بين الحانات ، رأس يتعمد إيقاف تفكيره ، مثل طير غريب ينخطف في سكون يثير حوله اضطراباً ويبتعد ، لسان مبلل بالكحول ، يشتم ، وظلٌّ ينتهك ثوبي ، فأحاول الهرب ، كل ما بقي مني ، لعنة على طرف لسانك وثمّة صرخة ضغطت أحشاءك في آخر ليلة احتضار ، رحل ورحل ورحل ، وها هو يعود ليخرج من جسدها شهقةً أخرى.

يترجّل من على صهوة الجبل الأخضر ، ليل ماطر يضخ من أنفه رشح الفجر يبلِّل حواشي النوافذ ، تراه يرتدي الضباب ، تحتشد في رأسها وجوهه المتعددة ، في العينين ، دخان ، في الأذنين أقراط ، ينتشل جسده من سطحها المتبخر ، خمس

بصمات تمسح الزجاج دروبًا تهرب مع الغبش، قطرة تناديه، يخرج صوتها إليه، شعاع فانوس متعب، يا سيدي المطاع... لا تخرج قبل أوانك !...، تتوقف عن الكلام لا لشيء إلاّ لأنها شعرت بدبيب يعبر فوق جسدها فتثائبت وحرّكت يديها، أعلى، أسفل، تكسّر البرد في خلايا جلدها، فسال قطرات عقّر ناصية المرآة، يأتيها، تحسّ به رجفة تخضّ بدنها، فتلتذ به، كأي نشاط يسيل مع طراوة لسانها، يهطل نثيثًا دافئًا يجوس صفحات وجهها، رأسها، يتخلل أطرافها، خدر يحتوي كيانها، تنساب أنامله تلامس شفتيها، شحم صدرها، اثنان في الليل، النّفس وما أمرت، هناك، كان البحر الممزوج بالكحل يتمخّض في عينيها موجٌ ولمعانُ أشرعة، كرةٌ بيضاء، هو ذا الأفق أسفل الرمش المرتجف، أنثى الدرّاج تغطغط، تستدرج عاشقًا يجوس المسافات المدغلة بمخالب سلكية، الصوت يتشظى في تيجان رأسها، يدخل غابتها، يصفق كفيه، جناحين في الريح يداعب هدبيها، يا سيدي المطاع.. كم بقي منك في رحمي ؟.

ها هي، يدور لسانها في اللُعاب، لا تدري، أهي مضغة شهوة أم فقاعة ألم، ومثل بقية الأشياء، رفعت رأسها، شيء معلق، عبر نوافذ رسمتها العناكب، ذاب الغبش في قلنسوة البحاّر القطبي، ذراع الساعة يرمح كالمهر المسلوب، تعبق الريح في وجهها رطوبة، إسفلت، وربما خدر وهمي، تلعثم

لسانها، تثاقل، جثة في تابوت صندل مكهرب، قرّبت صورتها من وجهه، لم يقبلها، لم ينظر في عينيها، تركها خيبة في موقد، فتشظّى غيظًا في عينيها، تراءى لها، كفاه مفروشتان فوق زجاج الصالة المبرقعة بالأضواء، شفتاه ترسمان دوائر ضبابية، اثنان في الليل هي وما بداخلها.

وها هو يدخل غرفتها، رذاذ يداعب جلد هرسه الحر، وحلم يتشيّأ بحذاقة ومهارة، يجتاز الباب الموصدة، كنسمة هادئة، لا ينتظر أن تدعوه، لا يتردد، مثل لياليه الفائتة معها، يتجرّد من أشيائه وينخرط بعالمها، يتأنسن مثل هتاف موجوداتها، خفيًا، هادئًا، مع شحنات الفجر المتكاثفة تشعر به يتحرّك في شتلات شعرها، تدعوه، فيتكوّر كالطفل الخائف بين يديها، تتنفّسه، ينثال مثل دخان لذيذ في ثيابها، صوت جدّتها وصورة مبخرتها تهتفان في تقاسيم سكون طفل، بين سفوح رئتيها، ينسرب مثل القدر الناعم، يحرِّك لسانها، يخرج مع أنفاسها، تطلقه شفتاها قُبلة دافئة، لهفة دون قيود، ينبعث من عينيها قبسٌ سحريّ، يتوزع حولها، يزرع الفضاءات المعلقة في روحها ألقًا ويؤثث المكان، يزرع وجوده حبيبات رطوبة ودبق فوق مساحات جلدها المحترقة لحظة ابتلاع القمر من قبل كبيرة التنانين، فتسمع هتاف جدتها، أصوات الطبول التائهة تلتمس المارد أن يطلق حلم الطفولات

وبدر الصبية المراهقات ، محاق العوانس وترتيلة الثكالى ، تسمع حشد الترانيم يعبِئ رأسها ، فتلمح عربات الحجاج تقصد المجرّة المتربة في ليلة الخسوف ، تتأمله لحظة صرخته الأولى، شعر أسود، عينان للصبح ترنوان، دم متأكسد، يشرع عائدًا في أوردتها، فتخرج المرأة من تحت أغطيتها، دمية ملونة تتذلل بين يديه، لا تسأله من يكون، فيه حلم منها، أو شيء كهذا.

ها هي تناديه، رغم وجوده عندها، سيدي المطاع... آتية إليك... أتأرجح بين قناديلك المشتعلة في دربي ، كأنك ليلٌ يطويني ، لن أرفع طرفي بوجهك بعد اليوم ، توسّد جرحي المفتوح في جسدي ونم قرير العين، أدخل دمي وقت تشاء، توِّج ليلتك الأخيرة بغرس أناملك في رقبتي ، لن أسألك ، لن أبوح بسرَك أبدًا.

رفعت يديها، في قلبها نار، في جسدها نار، الصوت نار، صدى صوت المؤذن يمتزج بصدى أجراس الكنائس، استقبلته كالفجر الرطب بين ضلوعها، أوقفت شهيقها لحظة، احتوته بصمتها المعهود، لم تتفوّه بكلمة، تركته يغادرها كالحلم العابر، أغمضت عينيها كي لا تراه ينزع جلده في مخدع امرأة أخرى، بقيت ساكنة كالبحر تنصت لاندفاعات أنفاسها المهتاجة لحظة ابتعاده مع السفح المسكوب في قدمي الشاطئ، تدقُّ الساعة

مرة، مرّتين، فيتحرّك العالم الراكد في أعماقها، عربات هرمة، تنظر إلى حزمة النور المتدفق نحوها، خيوط صفر تائهة تفضح أجساد الشوارع العارية، في إحداها، في جميعها، تكون ذرات رمل يسببها الموج.

في ساحة المطار، دخان، جسد ملتهب، إنه قادم، الريح وحلٌ متخثر، والأرجل عوّامات متعبة، تمشي بخطى مترددة صوبه، كأنها تقصد شيئًا ينتمي إليها، فيه ما يشبه جنونها، بين صفّي الأعمدة المشتعلة الرؤوس، كانت تحمل كل حنينها وأثاث أمكنتها المؤدية إليه، تذكّرت جملته التي حدَّدت كل الاتجاهات في عينيها، أنا ألمّ أشيائي الهادئة من شواطئ روحك، حاولت أن تطيل التأمل في تلك الكلمات المكتوبة بقلم الطباشير والطفولة في حدائق لم تزل نائمة جنب جدار الذكريات، بين صفي الأعمدة المشتعلة الرؤوس، كانت تمشي وتحتسي شيئًا من بقاياه، لا تصدر نامة، بلا أرجل كالفراشة تلامس سحنات بدويّة، تتوجّع كطراوة صبح يافع، تخفي فرحًا يتفلّت عصافير نظرات ماسيّة تحلّق في الامتداد أمامها، تحلم برائحته الآتية معه، تلك الرائحة التي نسجتها بساتين الورد والرياحين في دروبِ عشقٍ أبديّ، تحسست رقبتها لتجد الوعد معلقًا في سلسلة سابت مع امتداد ضلوعها، لحظات، أعوام، تقف بها الحركة والهواجس، القوائم تعجز عن ملاحقة الجسد

الهارب بين القامات ، بين التماعات السطوح الملساء ، يفتِّش عنها بين الحشد والتراكم ، ينصت ، الصوت يأتيه ، أنثى الدرّاج تغطغط من جديد ، لمحته يثب من دعامة رصيف بارد ، يهبط من فانوس متعب معلّق بحافة المئذنة القديمة ، يكبِّر ، يكبِّر ، فتنطفئ فوق شفتها الجمرات الحُمر ، رذاذٌ كالدخان يعبر رأسها ، يلمس رقبتها ، تشهق شهرزاد ، لقد انتهت الليلة الأولى بعد الألف ، ارتجفتْ ، سوف تسقط أسفل قدميها عُرى السلسلة الذهبية التي حملت وعدًا بالحياة ، تعالى عواء النسوة في المجرّات المجهولة ، إنه يوحي لها بخبله بعد انقضاء ليلتها ، تنتظر وجعها الأخرس ، همست بصوت : افعل بي ما تشاء !، ثم نثرت في الريح شعرها ، القربان ينضح دمًا مبتسمًا ، سوف ترتقي روحي قمة الجبل الأخضر وتقتل غطرسة آخر رجل هناك ، وترفع رأسها ، لترى كفه المرتعشة تربط السلسلة ، تبتسم ، يبتسم ، يقهقة ، تتوجس ، يتراجع بين حشد الأعمدة المصلوبة على امتداد الشارع ، شبح منبوذ.

في وقتٍ آخر ، تتكوّر ضمن شرنقة جسدها ، تحاول أن تجد جسدها المتراكم في الزوايا والدهاليز ، تقف صامتةً جامدةَ الملامح ، يحلِّق بين عينيها نورس ضائع ، في السقف يتحسّس الوطواطُ قدميه ، تدسّ كفيها في بطانة سترتها ، اثنان في الفضاء المفتوح ، هي ونظر يتسوّل بين الأجساد.

تهبط الطائرة ، على وجنتيها يفور الشوق ، حبّات عرق صافية ، تتابع صليل الأقدام الآتية ، فوق تعرجات الممرات الإسمنتية تتكسر نظراتها القلقة، شيءٌ في كيانها مال إلى الركود، يشقُّ صدرها طفلٌ مشاكس ، يخترق جلدها خدرٌ بارد ، يتدحرج بين الأقدام ، بكفها ضغطت كرة بطنها ، شعرت بجسده يمزق أغشية الهواء ، ويخرج ، يتوغل في طبقة الدخان المعلقة بينهما ، نفَسٌ يحرك السكون ، تزحف نحوها الرؤوس ، شظايا موج زائد، هي والصمت يتآلفان، هي والسكون شيئان متلامسان ، صوته مشبع بالحنين ، تسمعه ، لا تسمعه ، تتوقع حركة قدميه ، انتصاب رأسه ، حفيف الريح المرافقة له ، تحيط بطنها بكفّيها ، يهبط دخان يغرق تردد الخُطى ، تدبّ أناملها فوق جسده ، هي أقرب إلى تحديد موقعه في أعماقها، سمعت جدّتها تؤكد لها : دائمًا رأسه للأعلى ، وأرجله للأسفل ، ربما ، حدّثت نفسها: سوف يخرج من الخاصرة.

تلتفت صوب الشمعة الصغيرة ، لم يبق شيءٌ منها ، هذا موعده ، وانسابت أنامل ناعمة فوق انهيار شعرها، قالت فيما بعد، إنها تعرفه أكثر مما تعرف نفسها.

الأشياء بيادق شطرنجية ، ليلة العُرس الأخيرة إعلان لتصحّر العشق في مخدع شهريار ، والشهوة لن تكون سكينًا ؛ بل مواقد جمر ، هي والصمت يتآلفان ، هي والسكون شيئان

شفافيان ، كالريح ينزلقان في ثوب الليل ، في رأسها مشعل ، دخان ، وهناك رؤيا ، نظارة سوداء تحجب ، تظلل صورة العالم الآخر ، تنظر إليه ، ينظر إليها ، يمرّ كل منهما في جسد الآخر ، ينأى منحدرًا على سفح الجبل الأخضر ، تدعوه ، تعلن ولاءها له ، ودون أية التفاتة منه ، يجتاز كيانها المهيّأ لاستقباله ، تتوازن على جنبيه حقائب سفر لمأعة ، يبحث خلف شباك الأسيجة عن شعر مكور فوق هامة شقراء ، حينما شعرت بظلّه موجود حولها ، قذفت بأشيائها وباعدت يديها في الريح ، حفيف يشخر في أذنيها ، ودبق الفجر يتكاثف أسفل رقبتها ، يسيل بين ثدييها ، تميمة موشومة ، وتحت الجلد نبضٌ يتنفسه الثوب المبلل ، شيئًا فشيئًا ، تدسّ جسدها في غابة الدخان المتأرجحة بين ترسبات رؤيا ضبابية ، لا تجد سوى صدر امرأة خاوٍ ، وبين انكماشة جلده المقشر تدفن وجهها ، لا تدري من تكون هذه المرأة ، هي نفس متعثر ينشج تحت بياض خدها المعروق ، يد تمسد شعرها المبرسم شتلات متفرقة ، أسفل لسانها تنفقع قطرة مالحة ، لمحته ، هناك ، يترجل من على صهوة مجدها وينحاز بعيدًا كالسراب ، تأملته حينما امتطى الموج واستقبل البحر العائد لأحيائه القديمة.

قبل أن يغلق باب غرفتها ، مسّد العرّاف ذقنه وجرجر كمّي ثوبه ، قالت : بركاتك يا شيخ.. ، الحال شاهد ، أومأ برأسه ،

فخرجت والدتها مدثرة بعباءة سوداء، يباغت سمعها ضجيج الجسم الأحدب، يثور، ينفجر، يردِّد، كانت تنظر شحوب وجهه المتقطر حبيبات شفافة ينزُّ من جوفها اكتئاب وضجر، تحسّ بأطرافه ترفس تجاويفها الداخلية.

في تلك الليلة بالذات، حملت جسدها إليه، نادته بالصوت، بالإشارة، بتقديسة العيون، يا سيدي المطاع، كل جزء فيّ يتكلّم، في ظهري جيل منك، هلم إليّ... ومثل ريح الصبا عاد إليها، أتاها متخفياً، هادئًا، خفيفًا كالدخان، ملأ قربة ثوبها، رأسها بين يديه، رأسه إليها يقترب، لم تكن في عينيها حيرة ولا دهشة... في تلك اللحظات جمعتهما ألفة ثارت عبر تداعيات ذاكرة بعيدة، فكشفت جسدها له، تكسّر خجله الطفولي، تحرّر من دواخلها، صار ينطق الحروف بلسانها، يصرخ، ثم يختبئ في تموجات شعرها كالريح الهاربة بحبات رملٍ دقيقة، ساكن كالبحر، فكانت هي والصمت تتآلفان، وكأساور في حلم طويل، أنامله تلد دفئًا من الأظافر، من البصمات، تبث عجزًا في مفاصلها، ومثل لسعة خفيفة سرقت شفتاه صفاء بشرتها، تمرّ كالوهج في جسدها، يخترق الطين المتخمر بين يديه، كالدبيب يعبر فوق صدرها المتثائب، تتوقف عن الكلام، تطفو كالخشبة، تأرجحها أطرافه المنسوجة في جسدها، أنين أو صدى يأتي من إحدى الزوايا، الوطواط

يصرصر، يرتفع عند الباب دخان، هذيان، لا يلبث أن يهبط، يتشتت، يذوب في فضاء الغرفة المغلقة.

يتكوّر جسدها تحت لسع البلل الناقع في ثوبها، تشعر بوجوده يشاركها مساحة جلدها المحبب، ينغمس في دفء أغطيتها ويمتزج برائحة سيقانها المتخثرة، رأسه تحت ردائها، تنثال أنفاسه بين طيات جلدها كنثيث الرمل ثم تنسرب في جوفها، نصف مغمضة، نصف نائمة، تدهس راحتاها فراء الأغطية، خمول ينبعث في نهايات أطرافها كالخدر يسري في مناطق جسدها، رذاذ بارد، يقذف نثارًا بوجهها، صفعة خاطفة تنفجر فوق خدها المتجمد للحظة، تصرخ، يمزّق شفتيها صوتٌ هارب، يصرخ العرّاف، يسقط قلب والدتها في قدميها، تتوسل يداه المتشنجتان وهما تجوسان مفاصلها، سيدي المطاع، سيدي المطاع، كالفجر، كالمطر، يذوب في رأسها دخان، رعشة، تنعدم الرؤيا وتمتص الأرصفة ظلال الخطى الملفعة بالغبش الذاهب مع حركة الأجساد، نادته، وضاع صوتها في الوهاد... ليتك تعود، ليتك تعود، خلف النوافذ لم يزل فجر يتبخّر، ضغطت رأسها، فكانت شهقة دخان.



كابوس العودة

لم يخطر في خُلدي أن أقرأ تلك الكلمات الجافة ، التي حشرجت الحروفَ في بلعومي ، قبل أن تطيح بمخيّلتي الفتيّة التي احتوتني للتوِّ بحنوها وخدرها اللذيذين ، و أراحتني من عناء الرحلة الطويلة ، جعلتني أتناسى أحاديث السائق المملة ، ونكاته التي تشعرك بالقيء ، صوته المشروخ بآلاف السجائر الرّديئة ، يعلو تارةً ويخبو تارةً أخرى ، كان يتكلّم عن النساء كما لو كُنَّ كائنات خلقها الله للجنس والمتعة فقط ، ولإرضاء غرور الرجال المنتصرين ، الذين يلحسون شفاههم دومًا بعد كل مضاجعة شهيَة ، لا أدري لماذا كنتُ ألمحُ في وجهه خرائط دكاكين محروقة ، ونياح أرامل ، ثمة شيء يحيك التعاسة من حولك ، وأنت تروم الفرار إلى فلاة ما ، إلى مكانٍ بارد ، حيث لا بكتريا ولا فيروسات تمسك بخيوط المكان ، ربما حاولتُ أن أجد لي منزوى في نفق أسفل جلدي أو في حاوية الحقائب في الصندوق الخلفي للسيارة ، ولكن لابد من التسمم بهذا القدر ،

رأس بحجم بطيخة ناضجة، ينثر كل هذا العزاء في مساحة متدحرجة مع الريح... حاولتُ تناسي الصخب الذي مازال يحدثه في هذا الصندوق الحديدي الصدئ، كنتُ مبتهجًا وأنا أنساق وراء نغمات ذاكرة طريّة، ناعمة، مثل حنان أمٍّ ولدت لتوها، قلتُ: لقد عثرتُ على المنزوى البارد، مددتُ ساقيَ في المتسع الممكن، يداي تشابكتا لتسندا كرة رأسي، تحسستُ الندوب من خلال حرارة الجلد، همستُ: كل هذا الأزيز ومازلت يقظًا! فؤوسٌ ومطارق تعمل باستمرار أسفل هذه الكرة المتصدّعة، الزجاج مغطّى بطبقة من التراب وبعض البِقع الزيتية، فتحت أصابع يدي دربًا يتيح لنظراتي أن ترى مشهدًا لصحراء تتراجع رويدًا أمام حشد النخيل وحقول الحنطة، تنفّستُ بعمق، انسلَّ طفلٌ يافعٌ من أعماقي وصار يقفز هنا وهناك، مازال قرص الشمس على علوٍ يتيح لطفلي المهووس بالوقوف أمام عربة اللّبلبي، في قلب ساحة الميدان، والعبث بطاولات مقهى الموصلي المطلِّ على ساحة تجمع الحافلات من جهة شارع الرشيد، كان الدفءُ يتسرّب إلى أطرافي وأعصابي، يتصاعد مثل خدرٍ أرغب فيه، بدت المدينة تقترب مني، تكبر مع دقات قلبي، كانت تحسِسني بالأمان حين أرمي بكوابيس ساحة الحرب ورائي، في بداية كل إجازة دورية، كنت أسميها أكياس الحُريّة الصغيرة التي توزع علينا

نحن الجنود حتى لا نموت بلا رصاص، وها هيِ تزرع فيّ ذات الإحساس وأنا أعود من مكانٍ آخر، مكان يسميه الناس منفى، بالرّغم من أنه ليس بالمعنى الذي في ذاكرتي، لم يكن منفى بالنسبة لي، ربما كان مكانًا آخر وحسب، كنت دائمًا أتحاشى مفردة نفي، حاولتُ أن أستبدلها بمفردة تجوال، تنقل، حتى أكون بمنأى عن ذلك الهصد الروحي المتراكم مع الأيام، لو لم أهرب من بلدي وأقيم في مكان آخر لما فكّرت قط بتلك المفردات، إنما متطلبات الجغرافية التي يمليها عليك المكان الجديد: بطاقة إقامة، جواز سفر، حدود ونقاط تفتيش وعبور؛ كلها تحضر حين تفكِّر بكُنية الأمكنة التي تحتضنك... كنتُ متحمّسًا لاستنشاق هواء ساحة الميدان، في لحظات، أسخر من رغبتي تلك، وما الذي يعنيه لك هواء ملوث، وهياكل أبنية وشوارع عتيقة، إنّما ذلك الوشم المتجذّر في رأسي، أسميته وهمًا في يومٍ ما، وعدتُ ووصفته بسرطان الأمكنة، وبعد أن أعياني التنظير توقفت عن متاهة التسميات، قررت العودة وحسب، ربما لا أريد أن أموت بدون طقوس سومرية، يعرفها جيدًا أهل هذا البلد.

وها أنا أعبر السيطرة أو نقطة التفتيش، لم يفتشنا أحد، الكل منشغل بالعبوة الناسفة التي انفجرت قبل وصولنا

بدقائق ، تحوّل السير إلى طريق ترابية بعيدًا عن السيطرة ، كانت هناك خنادق حلزونية معدّة لحالات الدفاع ، ربما توقعوا هجومًا من جهة الصحراء ، كنت لا أبالي بطرح المزيد من الاستفهامات ، ها أنا أعود ، وأستسلم لخدرٍ لذيذ ، أرض جرداء وكثبان رملية على جانبي طريق العودة من العاصمة الأردنية عمّان ، طريق صحراوي ممل ، مليء بالخوف والحكايات ، فزّاعات من قماش وطين ، نُصبت هنا وهناك ، رؤوس نباتات الشوك والعاقول يحيلها السراب إلى خديعة ، ترفع النبض ووجع الرأس ، لا يتوانى سائق السيارة في ترسيخ أسطورة الهلع في نفوسنا ، وكلما لمحنا سيارة في الأفق ، أدخلنا أنفسنا في ممارسة رياضة الاحتمالات ، قلتُ : من هنا يأتي قلق انسداد الشرايين ، ويجد الفرد نفسه مرمياً ، في عراء بارد ، حولة ثلة نسوة ورجال بمعاطف بيض متّسخة ، يستهلكون حكاياتهم المعتادة وهم يؤرشفون للموت ، لا شيء في هذا الفراغ يلجم اضطرابي ، حين أتوق لرؤية صورتي في المرآة ، كنتُ صغيراً بحجم قط معافى ، حين شتمني أبي للمرة الأولى ، نهرني بعيدًا ، كان متوجسًا من تراقص عيني ، أنفي الأفطس ، يشبه أنف والدتي ، كان يبدو مفلطحًا حين ألصقه بلوح المرآة ، يتسع ويتسع حتى يشوّه كل ملامح وجهي ، في وقت تبقى عيناي مفتوحتين ، ألمح أبي يشد أمي من شعرها ، ويرفسها ، كانت تبكي ، أحسها تصرخ

أسفل جلدي، استغرق في عذابي، حتى تغرق دموعي المرآة، هناك، في مساحات الماضي، أشياء كثيرة ترهقنا أحيانًا، تدعنا نبدو متعبين، نبحث عن واحة هادئة بين الرؤوس المنشغلة بدوارها. تراجع طفلي اليافع حين نهضت سواتر التراب وخيم العسكر، كانت المشاهد الأولى التي أرغمت طفلي اليافع على الانزواء في أقبيتي من جديد، للمخيّلة طعم الحنظل أحيانًا، حين نلمس تراب الحزن فينا، أو طعم لعبة جميلة تمنيت أن ألهو بها يومًا في أحيان أخرى، الوقوف عند مسقط رأسي، وملعب طفولتي، ثياب العيد الجميلة برائحتها المبهجة، والمهرّج الذي يدور في الأزقة، يطرق الأبواب أحيانًا، يلوّح بيديه الملفوفتين بقماش مطرّز... صور كثيرة بدت تمطرها مخيّلتي، حتى رائحة الأرض كأنها منذ تلك الأيام، ذاكرة بلون الحلم، تشدّك لترمي أوصالك مبعثرة تحت نثيث الومض، الأصوات، الغناء والمرح، رائحة بنت الجيران فوق السطوح، وهي تفرك يديها خجلاً وخوفًا، من يرحم المرء إذا ما توقّدت برأسه ألوان الماضي الجميلة. بغتة شعرت أن سطلاً من الماء البارد قذف رشاشه في وجهي، وشرّد عصافير الحلم الجميل التي تحلّقت مع انبساط نظراتي في الأفق الهابط عند هامات النخيل وأشجار اليوكالبتوس الضخمة.

كانت السيارة التي تقلني قد تجاوزت قوس البوابة الكبير لم أعد أسمع كلمات السائق المقيتة، التفتُ مستديراً برأسي ونصف جسدي كي أعيد قراءة الحروف الحُمر التي كُتبتْ على أرضية قماش أصفر. في قوس البوابة رقم ١ أو بوابة الرشيد عند المدخل الشمالي لمدينة بغداد، انتشر مجاميع من الجنود المدجّجين بالسلاح، قلنسوات حرب وخوذات فولاذية، كالتي كنا نضعها فوق رؤوسنا أيام الحرب العراقية-الإيرانية الملعونة من وجهة نظري، مع أنني كنت عريفًا منضبطًا يؤدي واجباته العسكرية على أكمل وجه، بغض النّظر عن دوافع الجهة التي تدير الحرب، لم تكن ساحة الحرب تختلف كثيراً عن هذا المشهد، انتشرت خنادق لولبية حفرت بطريقة ماكرة، تتيح للعسكر تطويق العجلات المدنية التي تروم دخول المدينة. لو سألوني عن رأيي في طريقة حفر الخنادق تلك لأشرت عليهم بنفس هذه الطريقة.

كانت هناك ساحة حرب ومواجهة حقيقية مع البارود وفوهات البنادق، تملّصت من سطوة المشهد الحربي، كنت أزفر كلما تذكّرت الحرب، تشبّثت عيناي بكلمات اللّافتة الصفراء، كلمات سائبة بحجم كبير، خُطّت بالبويا الحمرة: "إلى من يهمّه الأمر... يرجى الإبلاغ عن المدعو خيّون طاسة،

المولود والمقيم في حي الميدان، حال التعرّف عليه أو رؤيته في ساحة الميدان"، قلت في نفسي: مازالت الطاسة تلاحقني أينما حللت، أخبرني جدّي أنها في الأصل كلمة فارسية، وهي وعاء من النحاس يستعمل للشرب ولصبِّ الماء، وتستخدم في الحمّامات بشكل خاص، عرفت حينها أن جدّي قضى حياته كلّها يعمل أجيراً في أحد الحمّامات في حي الميدان، وزوجته تأخرت في الحمل، فنذر أن يسمّي الوليد إن جاء ذكراً باسم طاسة، وحدث ما تمنّاه، لم تكن الكلمة تثيرني بالقدر الذي مثّلت فيه المقطع الثاني من اسمي، كنت أعتقد أن كلمة طاسة هي تميمة النحس التي تلازمني، وها هي تبدو أكبر كلمة في هذه اللّافتة اللعينة، مثيرة للاهتمام، حتى للذين لا يعبأون بالألقاب والكُنى، ألمح ابتسامة خفيفة تعتلي شفاههم كلما مرّوا بكلمة طاسة، كثيراً ما رفع رأسه موظف النفوس وتفرّس ملامحي، وهو يخطُّ كلمة طاسة في هوية الأحوال المدنية، كرّرها موظف آخر حينما استخرجت شهادة الجنسية، اما رهط الجنود الأغبياء فحدّث ولا حرج، كل صباح، كان العريف المسؤول عن تعداد حضيرتنا في الأشهر الأولى من التحاقي بالجيش برتبة نائب عريف، يكرِّر الكلمة للتأكيد، وكان الجنود ينفجرون ضاحكين، لا أدري ما السبب الحقيقي الذي يدفع هؤلاء الناس إلى الضحك! إنّهم بالتأكيد ليسوا

أغبياء، ولا قليلي الحياء، ولكن ثمة شيء في تفكيرهم يدعوهم للضحك، حتى أنا، كنت أضحك معهم بطريقة بلهاء، كنت معجبًا بكلمات أحد الضبّاط الصغار، كان صارمًا حين يلفظ كلمة طاسة، دون أن تثير أي لمز في نفسه، وحين يلمح أحد الجنود يبتسم يوبخه بشدّة، كان يردد: كل كلمة لها معنى، ولا فرق في المعاني، كلها تعلمنا... حاولت أن أهدأ مع كلمات ذلك الضابط الغر، استنجدت بشاب طري يشاركني المقعد: حاولنا أن نتخطى حاجز الشك، قرأنا الكلمات مرارًا، بحلقت في وجهه، استفهم الشاب، ماذا تعني لك تلك الكلمات؟ لوهلة أردت أن أبوح له بحقيقة الشخص الجالس بجانبه، تذكّرت كلام صديقي نصيف، الذي انزوى في قبوٍ مجهولٍ في حي الميدان، وصار يراسلني بين الحين والآخر، استحضرتُ كلماته وهو يصف لي حال البلاد والعباد بعد التغيير، إياك ولدغة العلّاس، لوهلة توقعته نوعًا من الأفاعي أو العقارب السّامة، عرفت فيما بعد أن العلّاسة صنفٌ من الناس، أنتجته سنين القهر والضعف والخوف، نما وترعرع في البلاد بعد سقوط الدكتاتور، يأكلون خبزهم بثمن الآخرين، يجالسك ويبتسم لك، ويغلظ اليمين الصدوق لرفقتك ومساعدتك، وحينما يستدير عنك، يعلسك برنة موبايل صغير يرقد في جيب قميص أو جاكيت، وربما سروال متعفّن، بعدها يحدث،

أن يفاجئك رهطٌ من المقنّعين ، أو رجال شرطة مزيّفين ، يسألونك أن تأتي معهم ، برغبتك أو بدونها ، لا يهم ، المهم أن تسير ويدك على قلبك ، وأشياء كثيرة ربما لا تستطيع أن ترى النور بعدها... صفعتني كلمات نصيف ، شعرت أن الخطر يحدق بي ، قفزت ، لاحظ الشاب الجالس بجانبي اضطرابي ، تعلّلت بمصيبة هذا المسكين ، هزَّ الشاب رأسه ساخراً ، إلقاء القبض مصيبة! ماذا تقول إذن بالذبح وفصل الرأس عن الجسم ، ارتجف قلبي ، وتراقصت عيناي في محجريهما ، قلت : السكوت من ذهب ، لا أريد أن أجرجر نفسي لتهلكة وشيكة ، عليّ أن أرمِّم ذاكرتي من جديد ، وبالتحديد ذاكرة ساحة الميدان ، عليّ التخفّي جيدًا ، والبدء بمغامرة تأقلم مع الواقع المنتج ، فكّرتُ بشكلٍ جدّي بحياتي القادمة ، لأول مرّة أشعر بالخوف ، فكّرت بتاريخي الطويل ، بحكاياتي في أزقة الميدان. إذن عليّ التوصّل إلى صيغة مناسبة ، تجعلني في مأمن من أيدي العلّاسة وأولاد الزنا في ساحة الميدان ، ربما سمع الكثير من الناس عن ساحة الميدان ، ولكن ما موجود في كرة رأسي عنها يفوق الكثير مما قيل ، ساحة الدروب الوسخة التي تنغلّ في جسد المدينة كالديدان ، إلاّ أنّ الكثير مازال يتحفظ على هذا الاسم ، قرأتُ ما لخّصه جمعة عبد الله مطلك عن ساحة الميدان ، كانت كلماته تشبه الغبار أو الصدأ ، أحدهم وصفها

بأنها فلسفة فارغة ، إلاّ أنها كانت تصف حال الأمكنة وفق رؤية عميقة : يأخذ المكان شكل الناس ويبدو البشر تقاطيع شبحية لذاكرة تحتضر ، وفيما يتحول التاريخ ذاكرة مترعة بالفتوح والفرسان والذهب والخيول وجوار حزينات ينحسر المكان بحدود لا تسعها سوى أمنية البقاء ، حتى يصبح مستحيلاً قبول الفراغ في علاقة المكان بالزمان، فيمكن للخيال أن يتآخى مع الحقيقة في تصور سكون الزمن لألف عام أو يزيد ، وليس صعبًا أن تعبِّر الأمكنة عن هذا السديم الزماني الغريب... هنا تنتهي كلمات جمعة عبد الله ، إلاّ أن رنينها يتواصل ، إذن كل شيء ينحسر أمام أمنية البقاء ، التاريخ والجغرافية، وحتى الفلسفة... هذا ما يجب أن أدركه ولا أتجرأ على نسيانه ، أو التساهل في الالتزام به ، مازلت غير مهيأ لتأثيث ذاكرة عن حياة البرزخ ، أو حتى عن جنان الخلد وعوالمها الساحرة، ربما لدي تصور بسيط عن جهنّم أدخلته في رأسي نعيمة القوّادة ، التي فسّرت لي الأمر على أنّه قناعة بسيطة ، لا تفكر بالجنّة وترهق رأسك بثمة مفاهيم قد لا تجدها صالحة للتعلّق بها، إذا ما هلكت أو بالأحرى إذا ذاب جسدك وصدّقت أنك مت.

عليّ الانغماس في تعريف عالم ساحة الميدان من جديد، والبحث عن نصيف، على الأقل لأصدِّق أنني الآن على لائحة المطلوبين للقضاء، وربما المعلوسين مسبقًا، عليّ اكتشاف الزوايا الخبيئة التي تفضي إلى السطوح المهجورة، دروب الحانات المظلمة، مع علمي الأكيد، لا توجد شبكة مجاري عملاقة في هذا الحي، ومع ذلك فأنا مطالب بالبحث عن المنهولات القديمة، عن فتحات التهوية، فتحات سحب مياه الأمطار، ربما توجد خانات قديمة لم ألحظها من قبل، عليّ قراءة خارطة هذا الحي من جديد، والشخص الوحيد القادر على مساعدتي هو نصيف، إذن نصيف هو الحل بالنسبة لي، وحتى أعثر عليه، يتوجّب عليٍ التسلل إلى دار نعيمة بوسط الحي، ربما أجده هناك متلبسًا بمغازلة فتاته الأثيرة إلى نفسه والتي تعمل في بيت نعيمة، يصفها نصيف بعود القرنفل، كان يتنهد ويسحب نفسًا عميقًا وهو يردد: آه يا عود القرنفل، ما أن تشمّه أو تمسّه حتى تشفى من جميع الأمراض والبلاوي ووجع الرأس... وقبل الشروع برحلة بحث خفيّة عن نصيف، عليّ تغيير اسمي مؤقتًا، والتخلص من أرق كلمة طاسة المنتشرة على جدران المدينة وأعمدة الكهرباء... هززت رأسي حانقًا ولعنت من دبّر هذه المكيدة ضدِّي، لا أستطيع الجزم بشيء قبل العثور على مخزن أسراري وأخباري، أو على الأقل رؤية وجه نعيمة

القوّادة، لا أدري هل بقي شيء من مودّتها لي بعد سفري دون توديعها ، أخبرني نصيف في إحدى مكاتيبه عن قلقها عليّ وغضبها مني في آنٍ، كانت تبصق في الأرض حينما تذكر اسمي، ولكنها كانت تحبني حدَّ الجنون ، هذا ما أكّده لي نصيف ، سمعها تبكي في إحدى الليالي، وحينما تجسس عن سرِ بكائها، أخبرته عود القرنفل عن حقيقة عشق نعيمة، وكانت تحتفظ بملابسي وأوراقي وخوذة عسكرية احتفظت بها بعد تسريحي من الجيش، علّقتها في مسمار على الحائط قبالة الباب، كتبتْ على حدبتها: كم أحبك يا ابن الطاسة.

من قبل كانت طاسة جدّي، التي صارت مع الأيام كُنية لأبي ، لا تعني لي شيئًا ، والدتي المسكينة كانت ترى الأمور بشكل مغاير ، كانت تلعن تلك التسمية ، وتمنّت لو لم يكن مولود جدّي البكر ولدًا ، لكانت الأمور أكثر انفراجًا ، وأكثر احتمالاً. سِربُ الأطفال الذين يحاصرونني كل يوم عند باب دارنا ، ويرددون : كلمة.. طاسة ، طاسة ، طاسة ؛ كان كفيلاً بحرق أعصاب والدتي، بالرغم أن تلك الصور لم تخلد في ذاكرتي طويلاً، في اليوم التالي أنسل مثل قط حذر، أدسّ لفافة ثوبي في فمي، كي أحبس أنفاسي وأمرق بهدوء من سطوة والدتي، كان العرق يسيل دبقًا في قفاي ، أبتعد مثل ممسوس ، أدور في

الأزقة، أبحث عن تجمعات الأطفال، ألهو معهم، ألهث من التعب، لا أتوانى عن رفس هذا وشد شعر ذاك، أمارس عراك الديكة معهم، أحيانًا أسمع كلمات تنال من أبي وأمي على السواء... النسوة يستجوبن أولادهن: من رفسك؟ من ضربك؟ من فتحة ضيّقة أسمع كلمات حادة: ابن الطاسة الملعون كان السبب... في المساء تتشاجر أمي مع أبي الذي يلعن اليوم الذي جاء به إلى الدنيا... ربما الكلام عن الطفولة لا ينتهي، أو بالأحرى مازال هناك متسع للحديث عن الطفولة. أن تتذكر شيء مضى أمرٌ هيّن، لا خسائر تترتب على ذلك، متى ما وضعت رأسك على كومة قش أو مخدّة متّسخة، تجد نفسك في حالة استغراق في ذاكرة ما، المهم أن لا يكون الحاضر سببَا في تأزم انثيالك، الحواجز المادية لا تستطيع أن توقف تلك الثرثرة اللذيذة مع أشياء لم تعد موجودة معك، أن لا يكون لها أي ارتباطات بحاضرك... كانت نعيمة تفلسف الذكريات وفق مراحلها الزمنية، لا تتطرّق لسنينها العشر الأخيرة، تمسّني بالخوف، هكذا كانت تعلّق، تتناول شبابها قبل عشرين سنة، تكون الأشياء والأمكنة قد رحلت لكينونة أخرى، إنما الكلام عن الحاضر مليء بالخوف، شيء متعب، ليس وحده الاسترسال في الحكي، بل ما يتوجب عليك أن تفعله حيال ذلك الوضع.

في المساء أخذتني قدماي متسللاً إلى الساحة القديمة ، كنت أدرك حجم حماقتي لو رآني أحدهم وعلسني بهدوء ، ومع خوفي وحذري وجدت نفسي أدور بين البيوت التي تحولت إلى أقبية حقيقية ، أبواب خشبية متهالكة تسلّقها الوحل ، ساحة ضيقة ما عاد لوجودها أهمية تذكر ، الجامع الكبير تم هدمه واستبداله بعمارة تجارية ، ربما الناس في هذا الحي ما عادوا متحمسين لسماع صوت المؤذن المتحشرج، كان نصيف ينصحه دوماً بتناول جرعة من العسل الطبيعي قبل تسلّق قامة المئذنة، الدكاكين الصغيرة توسعت، تم فتح طريق يوصل الحي إلى باب المعظم من جهة شارع الخلفاء، الدروب الضيقة امتلأت بالأزبال ، مقابر القمامة توسعت ، البلدية رفعت يدها عن هذا الحي ، بدا بهيئة منكوبة ، بناية المكتبة المركزية في الطرف الشمالي للحي ، تحولت إلى مديرية تتبع الوقف الشيعي، وما عاد صوت الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد مسموعًا بين جدرانها ، بعد إعدام الدكتاتور ، غاب صوت الشاعر المولع بمحاكاة صورة سيده ، وما عاد أحد يذكر ابتسامته الخبيثة، ولا حتى أنا عدت معنياَ بتلك البناية، المهم أن أجد ممراً مخفياَ عن الأعين، يوصلني لدار نعيمة.

أحد سماسرة البيوت كان يتكلم عن تاريخ ساحة الميدان، وذكر أشياءَ كثيرةً عن الخانات والإسطبلات المنتشرة حول الساحة، وعن المقاهي والأمكنة الأثرية التي تحفل بها الساحة حتى أن مدفع بغداد الشهير (طوب أبو خزّامة) كان موجودًا فيها، كان سابقًا عند باب بغداد، خلف مستشفى الكندي في المكان المحاذي لمنطقة الشيخ عمر ، ثم تحول مكانه في الستينيات إلى ساحة الميدان ، حيث وُضِع في الموقع القريب من الباب الجانبي لوزارة الدفاع (القشلة) ، وأصبح الناس يزورنه بمرور الزمن باعتباره طقسًا من الطقوس التي يمارسونها لطرد الحسد والشر عن أبنائهم... ولكن ما يثير الدهشة هو أن الطوب اختفى بعد التغيير وسقوط الدكتاتور، إذ لا يُعرف من هي الجهة التي رفعته من مكانه وإلى أين نقل، حين تلعثمت خطواتي في تفسير الفراغ من حولي شعرت أن الأشياء قد استحالت مجرد منحنيات. وما عادت لي رغبة في الحديث عن كابوس شلَّ ذاكرتي، وجمّد الحدوس في رأسي، أن تعود لبيتك شيء جميل وحميم ، إنما يقتادك رجل أمن متّشح بالخوف شيء مثير للبكاء والنحيب.



المؤلف في سطور

- قاص وروائي عراقي مقيم في الولايات المتحدة الامريكية.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في تكنولوجيا المعلومات من ولاية منيسوتا الأمريكية.
- شهادة الماجستير في برمجة الكمبيوتر من جامعة ديترويت في ولاية مشيغن.
- له العديد من الإصدارات الأدبية والعلمية في مجال تخصصه
- صدر له في الحقل الأدبي :

١. نصوص : مجموعة قصصية مشتركة مع القاص فاضل القيسي. دار الأمد ، بغداد ١٩٩٣

٢. تميمة الميعاد : مجموعة قصصية. دار الهادي للنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٠

٣. الأضرحة : رواية. دار أزمنة، عمان – الأردن، ٢٠٠٤

٤. الوحل : رواية. دار الشروق، عمان – الأردن، ٢٠٠٥

٥. منظومة القراءة : كتاب نقدي. نسخة الكترونية. دار ناشري، الكويت ٢٠١١

٦. حانة المتنبي : قصص قصيرة. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٦

- البريد الإلكتروني : aaltamimi@kalittaair.com



(+2) 01288890065 .(+2) 02 27238004

www.shams- group.net